غُرَابُ قَابِيلَ وهَابِيلَ

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى

٢٠١١م - ١٤٣٢هـ

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر

حقوق التأليف والاعداد محفوظة لدار ابن الأثير/جامعة الموصل

لا يجوز نشر، أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت الكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

alassrya@terra.net.lb
E. Mail alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت

www.almaktaba-alassrya.com

ISBN - 978 - 614 - 414 - 599 - 9

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ
مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا
يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ
أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ
وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ
فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ
فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ
أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ
فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ ﴾

صدق الله العظيم

سورة المائدة ـ الآيات (٢٧ ـ ٣١).

كانَ لِسَـيِّدِنا «آدَم» عليه السلام وَلَـدانِ وَبِنْتـان؛ لأنَّ «حَـوَّاء» زَوْجَتَـهُ حَمَلَـتْ مَرَّتَيْـن؛ فَولَـدَت في المـرَّة الأُولى ذكـرًا وأُنثى، وكَذلكَ في المرَّة الثَّانية. وكان الصَّبِيُّ الأَكْبَرُ يُدْعَى «قابيلَ»، والأَصْغَرُ يُدْعى «هابيل».

أَمَّا «قابيلُ» فَقَدْ عُرِفَ بالشَّـرِّ وسُـوءِ الخُلُق؛ كما عُرِفَ «هابيلُ» بالْوداعَةِ والطِّيبَةِ وحُسْنِ الْمُعاشَرَةِ.

وَلَـمْ يَكُنْ على الأَرْضِ كُلِّها غَيْرُ هذه الأُسْـرةِ الصَّغيرةِ؛ فلمَّا كَبِرَ الأَولادُ وبَلَغُوا مَبْلَغَ الشَّـبابِ، أَرادَ سـيِّدُنا «آدَمُ» أَنْ يُكْثِرَ من النَّسْـلِ والذُّرِّيَّةِ بتَزْويج أَبْنائه، فعَرَضَ عَلَيْهم رَغْبَتَـهُ، وَنَصَحَهُم بأَنْ يَخْتـارَ كُلٌّ منهما الْفَتاةَ الَّتِي وُلِدَتْ مَعَ شَقيقهِ زَوْجَةً لَهُ.

فأطاعَ «هابيلُ» رَغْبَةَ أَبيه واسْـتَعَدَّ لِلأَمْرِ، وكانتِ الفتاةُ الَّتِي من نصيبِهِ جميلةً طيِّبَةَ النَّفْس، كريمَةَ الخُلُق.

أَمَّـا «قابيـلُ» فَرفَضَ أَنْ يُـزَوِّجَ تَوْأمَهُ لشـقيقِهِ «هابيل»، وأَصَرَّ عـلى الاحْتِفـاظِ بها واتِّخاذِهـا زَوْجَةً لـهُ وحِرْمانِ أخيه مِنْها.

عندئِذٍ اقْتَرَحَ عَلَيْهِما والدُهما أَنْ يُقَدِّمَ كُلٌّ منهما قُرْبانًا[1] إلى الله تعالى، فَمَنْ تَقَبَّلَ الله قُرْبانَهُ نَفَذَ رأْيُه؛ ويجبُ أَنْ يكُونَ هذا القُربانُ من أَحْسَنِ ما يملكان، أَوْ يقدران عليْهِ، فرَضِيَ الأخَوَانِ بهذه التَّجْرِبة، وسَعَيا إلى التنفيذ.

خَرَجَ «هابيل» إلى غابةٍ كثيرةِ الأشجار، نَدِيَّةِ الأعشابِ، تسْرحُ فيها الحيَواناتُ وتتغَذَّى من ثِمارِها وحَشائِشها؛ واختبأ وراءَ شجرةٍ ضخمةٍ؛ منتظرًا فُرصةَ صيْدٍ ثمين؛ وبَعْد وقتٍ طويل وَصَبْرٍ كبيرٍ مَرَّ بالقُرْبِ منْهُ قَطيعٌ من الغِزْلان؛ فخرج من مَخْبَئِهِ يُطارِدُهُ؛ وتَمكَّنَ بَعْد جَهْدٍ ورَكْضٍ وَعَرَقٍ أن يُمْسِكَ غَزالًا ضَخْمًا حادَّ القرونِ، عظيمَ اللَّحْمِ؛ فَحَمَلَه وعَاد بِهِ إلى مأواه؛ وهناك ذَبَحَهُ، وقطَّعَ لَحْمَهُ وَقَدَّمَهُ قُرْبانًا إلى الله تعالى تأْكُلُه الطُّيورُ؛ وأَشْهَدَ أَهْلَهُ على ما فَعَل.

أَمَّا «قابيل» الشِّرِّيرُ ذو النَّفْس الخَبيثةِ فَقَدْ جَمَعَ من أَرْضٍ كان يَزْرَعُها طعامًا رديئًا لم تَقْبَلْهُ البهائِمُ وَلَمْ تأكُلْه.

---

(١) القُرْبان: ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى من مالٍ أو طعامٍ أو غيرهما.

وأثناءَ اللَّيْلِ هَبَّتْ ريحٌ عاصِفٌ، وَأَبْرَقَتِ السَّماءُ وَأَرْعَدَت، وسقطتْ صاعِقةٌ مُلْتَهِبةٌ، فأحْرَقَتْ قُرْبانَ «قابيل» وقَضَتْ عَلَيْه.

ولم يَقْبَلْ «قابيل» حُكْمَ الله تعالى؛ وهَدَّدَ أَخاهُ «هابيل» بالْقَتْلِ؛ ليتخلَّصَ من مُزاحَمَتِهِ لَهُ على فَتاتِهِ. فقال لَهُ «هابيل»:

«إنَّ الله يَتَقَبَّـلُ قُرْبانَ الذين يُطيعونَـهُ ويخافونَهُ، فيتَّبِعُونَ أوامِرَهُ ويَبْتَعِدونَ عَمَّا نَهى عَنْهُ. وإذا أَرَدْتَ يا أَخي أن تَقْتُلَني وتَسْـتَحِلَّ دمـي، فإنني لَـنْ أَفْعَـلَ ذَلك بِكَ؛ لأننـي أخافُ الله رَبي، فلا أَقْتُلُ إنسـانًا بغَيْرِ حَقٍّ؛ وسيُحاسـبُكَ الله حسابًا شديدًا على ظُلْمِكَ لي، ويجعلُ جزاءَكَ النَّارَ وبِئْسَ القرار».

فَلَمْ يَسْتَمِعْ «قابيل» لِنِداءِ أخيه ونصيحته؛ ولم يَسْتَجِبْ لتحذيرِه وتنبيهِهِ؛ وَظَنَّ أَنَّه يخدعُهُ بكلماتهِ ليفوزَ بشقيقَتِهِ وحبيبتهِ؛ وصَمَّمَ على القَتْلِ، وأَضْمَرَ الشَّرَّ.

ولم يَكُنْ «هابيلُ» أحسـنَ من «قابيلَ» أخلاقًا فقط، بل كان أَشَدَّ مِنْهُ قُوَّةً؛ فأخذ «قابيلُ» يتساءلُ:

«كَيْفَ السَّـبيلُ إلى قَتْلِ «هابيل» وأنا لا أَسْتَطِيعُ مُبارَزَتَهُ ومُقاتَلتَهُ لئَلا يَغْلِبَني؟».

عندئذٍ عَزَمَ على الْغَـدْرِ بأخيه، وقرَّر أنْ يقتلَهُ وهُوَ نائمٌ؛ وفي يَوْمٍ من الأيامِ تتبَّعَ «قابيلُ» خُطُواتِ أخيهِ وهُوَ يَسْعَى إلى الغابة للصَّيْدِ؛ ورآه يَعْدو وراءَ الغزلانِ؛ يصعدُ التِّلالَ، ويهبِـطُ إلى المُنْحَـدراتِ؛ حتَّـى أصاب غَـزالًا حَمَلَهُ على

كتِفِـه وعاد به إلى مَجْـرَى النَّهْرِ، وهُناكَ رَبَطَهُ إلى شـجرةٍ، ونـزل إلى ماءِ النَّهْـر لِيَبْترِدَ، ثم تمدَّد فوقَ الأعشـابِ عند ضَفَّةِ النَّهْر؛ وراحَ في نَوْمٍ عميق.

فمشـى «قابيـل» نحـوه بحذرٍ حَتَّـى اقتربَ مِنْـه، ورفع حجـرًا ثقيـلًا ثُـمَّ أَلْقاهُ عـلى رأْس أخيـه، فصـرخَ صَرخةً عظيمةً وسَكَتَ مَيْتًا.

ولقد سالت الدِّماءُ الغزيرةُ على الأرضِ، فبلَّلَتِ التُّرابَ؛ وتَراجع «قابيل» إلى الوراءِ مَذْعورًا خائفًا تَرْتَجِفُ أَطْرافُه[1]، يداهُ وقدماه؛ وتَساقَطَ العَرَقُ البارِدُ من وَجْهه، وزاغَتْ عيناه، وأَحَسَّ بأن قَلْبَهُ يكادُ يتوقَّفُ عن الخَفَقان، ثم امتلأتْ عَيْناهُ بالدُّموع، وأَخَذَ يبكي بصوتٍ عالٍ، ويَشْهَقُ كأنه طِفْلٌ صَغيرٌ، وهَجَم على جُثَّة أخيه الممدَّدَةِ على الأرضِ واحْتَضَنَها بيَدَيْه، وأخذ يُقَبِّلُ وَجْهَهُ ويلثمُه.

لَقَدِ اسْتَيْقَظَ ضميرُهُ الَّذِي كان نائِمًا، وشَعَر بسُوءِ فِعْلِه وما جَنَتْ يداه؛ ونَدِم على ما حَصَلَ مِنْه؛ ولكنَّ النَّدمَ لا يَنْفَع؛ ولا يُعيدُ الحياةَ إلى «هابيلَ» المقتولِ ظُلْمًا؛ فأقامَ

(١) أَطْرافُه : يداهُ وقدماه.

عِنْدَ الجُثَّةِ لا يَدْري ماذا يصْنَع؛ يُحَرِّكها بيديه فلا تَتَحَرَّك؛ يُنادي صاحبَها فلا يُجيبُ؛ وذهبتْ كُلُّ مُحاولاتِهِ وتوَسُّلاتِهِ أدراجَ الرِّياح.

وجَلَسَ بقُرْبِ الجُثَّةِ مهمومًا حزينًا يلومُ نَفْسَهُ على ما فعل بأخيه؛ وما ارتكبتْ يداهُ بحقِّ الأُخُوَّةِ.

وحينَ أَظْلَمَ اللَّيْلُ لم يَتَحَرَّكْ من مكانِهِ، ولَبِثَ حائرًا لا يَدْري ماذا يَفْعلُ، وكيفَ يتصرَّفُ؟!

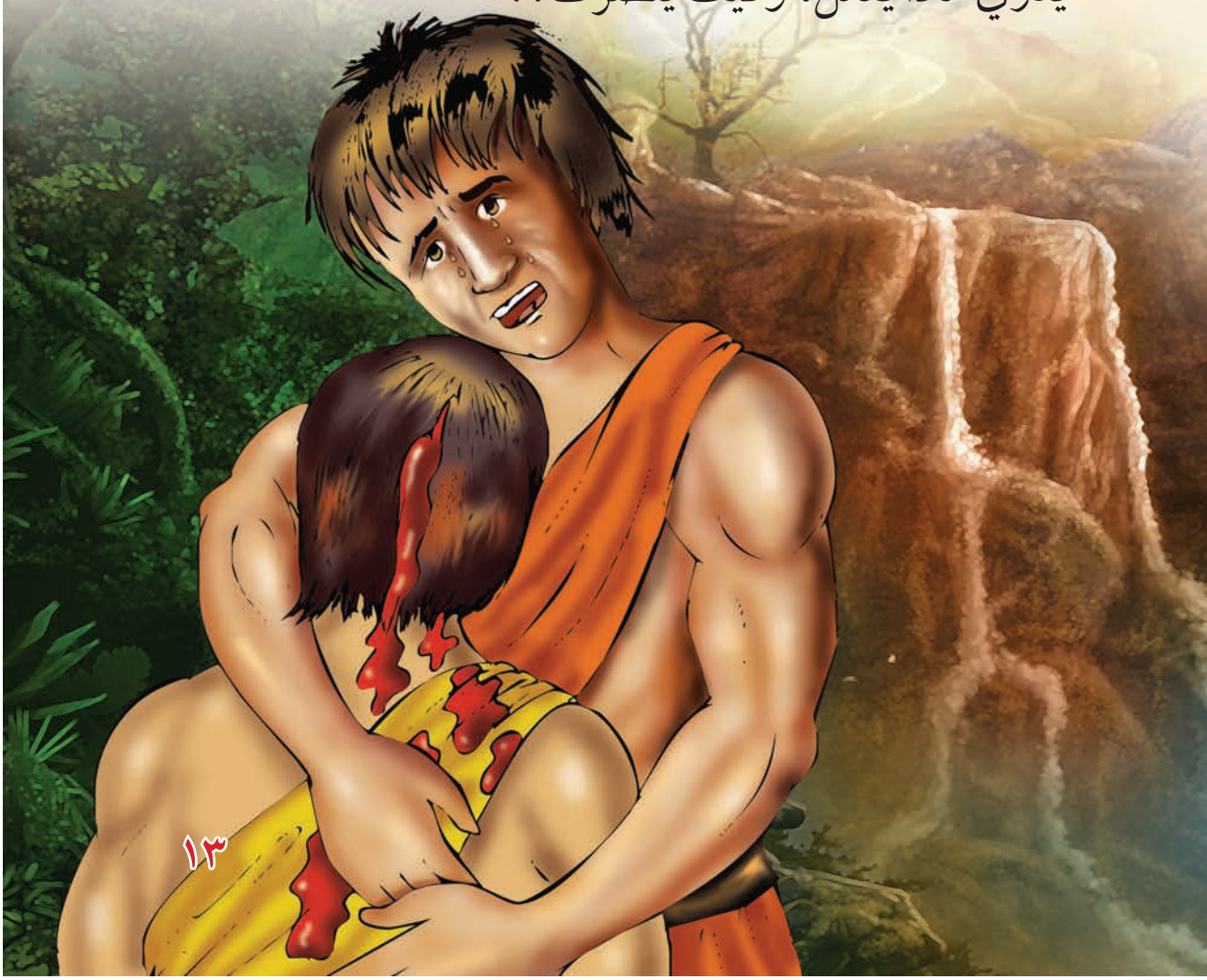

وَبَدأتْ مَعَ شُـروقِ شَمْسِ اليومِ التالي واشتدادِ الحرَارةِ تفوحُ رائحةٌ كريهةٌ من الْجُثَّةِ؛ وأخذت الحشـراتُ تحومُ حَوْلَهـا، ثـم تَنْهـشُ فيهـا؛ وعـلى رائحـةِ الدِّمـاءِ المنبعثَةِ تَجَمَّعتْ بَعْضُ الحيواناتِ الصَّغيرةِ؛ فقام «قابيلُ» يَدْفَعُها ويُبْعِدُهـا؛ ظنًّا منه أَنَّه يُكَفِّرُ عَنْ خطيئَتِه، وأَنَّهُ بِدُمُوعِهِ الَّتي ذَرَفَها قدْ غَسَلَ آثارَ الجَريمَةِ الْبَشِعَةِ.

وبينما هو غـارِقٌ في هُمومِهِ ودُمُوعِهِ، لَمَـحَ غُرابًا يَحُطُّ قريبًا مِنْهُ وفي منقارِهِ طَيْرٌ مَيْتٌ؛ فوضعه

جانبًا وَبَدَأَ يَحْفِرُ الأَرْضَ بقائمتيْهِ، فلمَّا انْتَهَى مِنَ الْحَفْرِ، قَذَفَ الطائِرَ الميْتَ فيها وأَهالَ عليه التُّرابَ.

كان «قابيلُ» يَتَتَبَّعُ أَعْمالَ الغُرابِ مُتَعَجِّبًا من فِعْله؛ فتعلَّمَ مِنْه كَيْفَ يَحْفَظُ جُثَّةَ أَخيه؛ كما أدرك أنَّ الله تعالى هو الَّذي أرسلَ الغُرابَ ليلقِّنَه هذا الدَّرْسَ.

فشَمَّرَ عن ساعِدِ الْجِدِّ وقامَ يَحْفِرُ الأرضَ، واختلط عَرَقُ الجَهْدِ بدُموعِ النَّدَمِ، فَلمَّا انْتَهَى، وارى جُثَّةَ «هابيل» في جَوْفِها، وعاد حَزِينًا نادِمًا إلى أَبِيهِ وأُمِّهِ.

٢

سَفِينَةُ نُوحٍ

عليه السلام

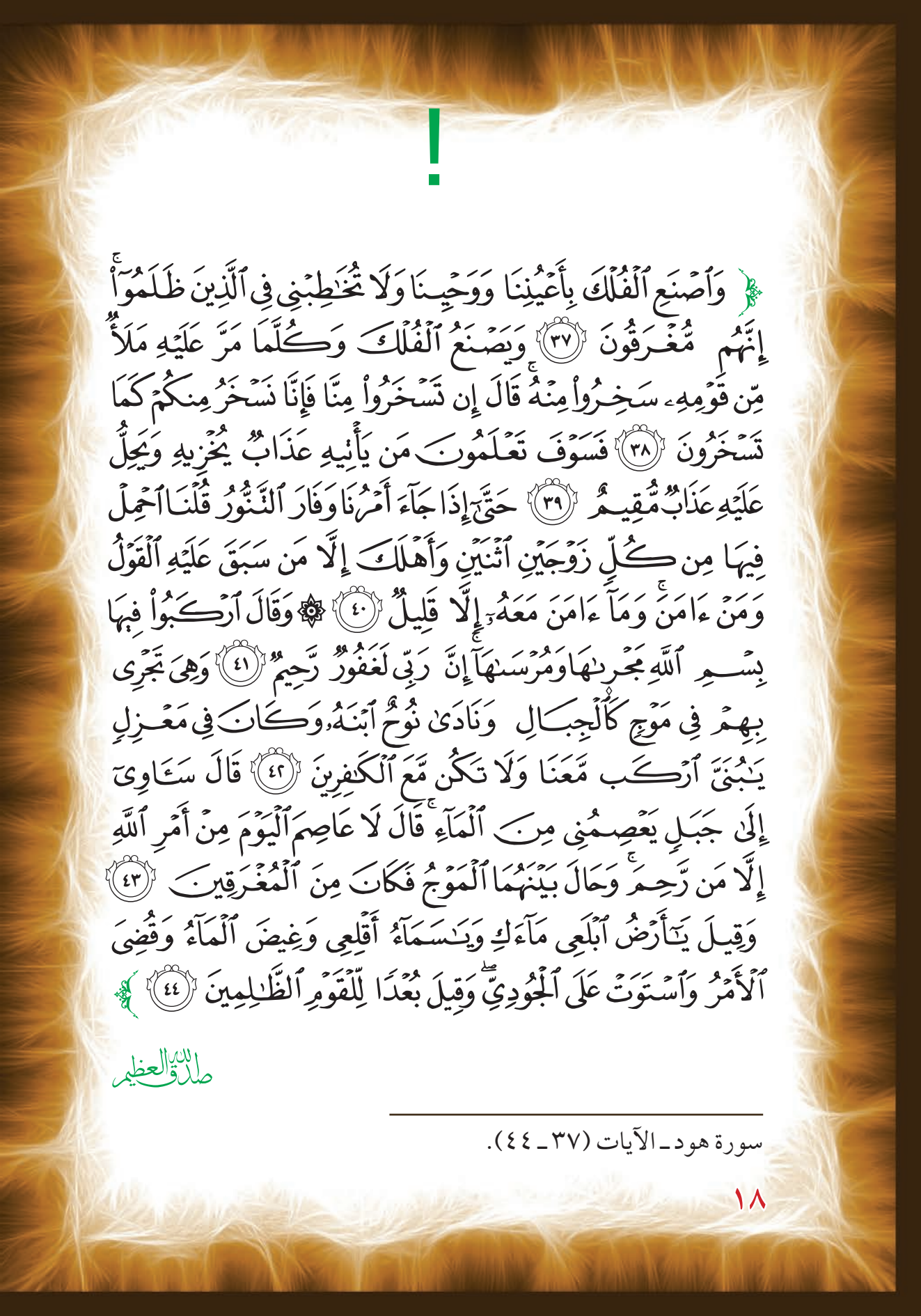

﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ
إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ
مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا
تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ
عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ
فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ
وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا
بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ وَهِيَ تَجۡرِي
بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ
يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ
إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ
إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣
وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ
ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ﴾

صدق الله العظيم

سورة هود ـ الآيات (٣٧ ـ ٤٤).

قَوْمُ «نُوحٍ» عليه السلام

كان قَـوْم سـيدنا «نُوح» عليه السلام عاكفين على عبـادة أَصْنامٍ لَهُم، اتخَذوها من الْحِجارة والأَخشاب، نَحَتُوها بأَيْديهم وأَقاموهـا تماثيـل على أشـكال مختلفـة، وأطْلَقُـوا عَلَيْها أَسْـماءَ أَشْـخاصٍ وأُناسٍ كانُوا في زَمَنِ آبائهم وأَجْدادهم صالحين مُتَّقين..

واشْـتدُّوا في عبادتها وتقْديسها وتعظيمها، ونَسُوا رَبَّهُم ـ سُبْحانَهُ وتعالى ـ خالِقَهُم وخالِقَ كُلِّ شَيْءٍ!!

واسْـتَغرقُوا في طُغْيانِهِم وغُلُوِّهم، وشِـرْكِهِم وكُفْرهم، ولقـد انْحَـرَف بِهِـم هـذا الجهْل إلى كثيـرٍ مـن المُوبِقاتِ والمَفاسِد في حياتهم الاجتماعية.

اخْتِيارُ «نُوحٍ» عليه السلام

فاختـار الله تعـالى مـن بَيْنهـم «نوحًـا» عليه السلام ؛ ليُنْذِرهُـم عذاب الله إذا تمادَوْا في غَيِّهم وضلالهم، وإذا ما ظَلُّوا على

أوثانهم عاكفين، ولها مقدِّسين وعابدين، وإذا اسْتَمرُّوا أيْضًا في مفاسدهم عابثين، وفي المظالم مُسْتَغْرقين.

اختارَهُ ـ سُبحانه وتعالى ـ من بَيْن الفقراء... فقراء الْقَوْم، لا يملك مالًا عريضًا، ولا ثَرْوَةً واسعة، ولا غِنًى وافرًا، بل يَمْلُك الصِّدْقَ والحقَّ، والْخُلُق والْفَضْل.

ودعاهم «نوح» عليه السلام إلى تَرْكِ عبادَةِ الأوْثان، والإقلاع عن المفاسد، والاهتداء إلى الصراط المستقيم، ونَبَّأهم بأَنَّ الله تعالى سوْفَ يُغْدِق عليهم نِعَمَهُ بفضْله، ويوسِّع عليهم في الرِّزْق والخَيْر إن هم اسْتَجابُوا. وَأَنْذَرَهم بعقاب الله تعالى إنْ هُمْ أَصَرُّوا واستكْبروا!

الرَّفْضُ !

لكنَّ قَوْمَ «نُوحٍ» تَعَجَّبُوا ممَّا يقول ! وكَذَّبُوه واتَّهمُوه، واسْتَغْرَبُوا أَنْ يَبْعَثَهُ الله إليْهم وهو الفقير الذي لا يمْتازُ على أحَدٍ مِنْهُم بالْغِنى والجاه!!

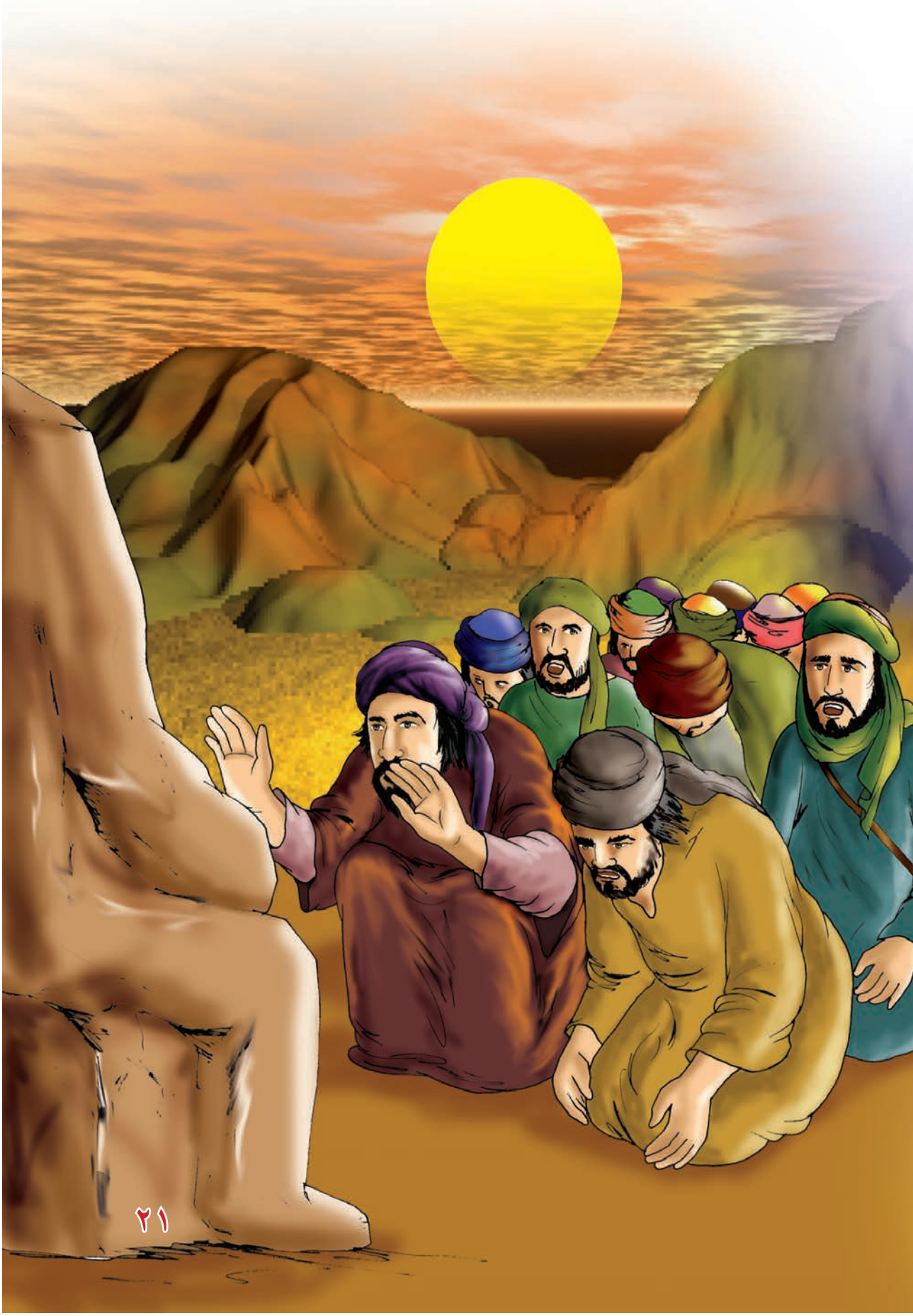

وسَـخِروا منْهُ ومن الذين اتَّبَعُوه وصَدَّقُوهُ مِنَ الضُّعفاء والأَراذِلِ، واسْـتَعْلُوا أن يكُونُـوا هُـم وهَـؤلاء في صَـفٍّ واحد، وأَصَرُّوا على الاستمرار، وتواصَـوْا بَيْنَهُم فقالُوا: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[1].

لكـنَّ «نُوحًا» عليه السلام لم يَسْـكُتْ على نُفُورِهـم ودعاويهم واسْـتكْبارهم، فكان يُجادِلُهُـم في كُلِّ شَـأْنٍ وفي كُلِّ أَمْرٍ، ويحـاولُ أن يُوقِظَ في عُقُولهم وقُلُوبِهم ما اسْـتَغْلَقَ عليها من وَساوِسِ الشَّيْطان وإِفْك «إبليس».

فَتَبَرَّمُوا مِنْهُ وضَجِروا وتَحَدُّوهُ أَنْ يأْتيَهم بما يَعِدُهُم من عذاب الله وعقابِهِ إن كان من الصادقين فيما يقُولُ ويَزْعُم، و ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[2].

(١) سورة نوح ـ الآية ٢٣.

(٢) سورة هود ـ الآية ٣٢.

شَكْوَى «نُوحٍ» إِلَى الله تَعالى

وحَيْثُ إِنَّهُ عليه السلام قد أَيِسَ مِنْهُم، ويَئِسَ مِنْ هِدايَتِهِم، وقد صَبَر عَلَيْهِم كثيرًا، وتحمَّل إيذاءَهم له بالقَوْل والْفِعْل، وسخْريتَهم بِهِ واسْتِهْزاءَهُم، وطَفَح كَيْلُهُ، وفَقَدَ صَبْرَهُ، تَوَجَّه إلى الله تعالى بالدُّعاءِ عَلَيْهِم:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا
﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي
دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾
فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم
مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ
أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ
تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ
نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾
ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ
عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا
كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

سورة نوح ـ الآيات (٥ ـ ٢٢).

وفي هـذا الْعَـرْض الذي قدَّمه سـيِّدنا «نُـوحٌ» عليه السلام يُبيِّن مـدى ما عاناهُ مع هؤلاء القـوْم الجاحدين، وكم بَيَّن لهُم أَنَّهُـم لو اهتَـدَوْا واتَّبَعُوا النُّورَ الذي جاءَهـم به، وتذكَّرُوا نِعَـمَ الله عَلَيْهِـم، لَوَجَدوا الله تعـالى أكْثر إنْعامًـا وإكرامًا، لكنَّهُم رفَضُوا دَعْوتَهُ وأبَوْا الاستجابة له.

عندئذٍ دعا رَبَّه ـ سُبْحانه ـ فقال:

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[1].

السَّفِينَةُ !

وعند السـفينة نتوقَّف قليلًا؛ فقد أَمَـرَ الله تعالى «نوحًا» عليه السلام بعَمَـلِ الْفُلْـك، وهي السَّـفينَةُ؛ لتكون أداةً ووسـيلةً لنجاتِـهِ مـع من آمَنَ بِـهِ من الْغَـرَق؛ لأَنَّ الله تعـالى أَوْحى إِلَيْه أيضًا أنَّ الطُّوفانَ سـيَكُونُ هو العذاب العتيد في الدُّنيا

(١) سورة نوح ـ الآيتان (٢٦ ، ٢٧).

للذين أعْرضُوا عن دعْوة الحق، وأصَمُّوا آذَانَهُم عن نداءِ الإِيمان.

ولقد حَدَّد الباري ـ سُبْحانَه ـ علامَةَ الْبَدْء في ذلك، بأَنْ يَفُورَ التَّنُّور[1] بالماء، وذلك بسَبَبِ ما سَوْف يَنزلُ من السَّماء من أَمطار غزيرة ومياهٍ وفيرة.

وكان «نُوحٌ» عليه السلام يُتْقِنُ فَنَّ النِّجارة وحِرْفَةَ صِناعَةِ الأخشاب، فَبَدأ التَّنفيذ: قَطَّعَ الْأَلْواحَ ونَشَرها، ثُمَّ صَقَلها ومَسَحها، وبَدَأ يَجْمَعُها بالمسامير الغليظة الضَّخْمة، وَرَتَّبَ طَبقاتها، وكوَّرها من بَعْض جِهاتِها، ثُمَّ طلاها من خارجها بالْقطران الْمُذاب.

أَنْفَقَ في ذلك أيَّامًا طِوالًا، وجُهْدًا عظيمًا، وبَذَل كُلَّ ما في وُسْعِهِ وطاقَتِهِ، من غيْر كَللٍ ولا ملل.

وصار الْقَوْمُ.. كُلَّما مَرُّوا بهِ يتغامَزُون، ويَهْزأون ممَّا يَصْنَع، وتَعْلُو ضَحِكاتُهم بالسُّخْرية مِنْه حين يُخْبِرُهُم أَنَّ الطُّوفانَ قادِمٌ وسوف يَبْتليهم ويَبْتَلعُهُمْ!!

(١) التَّنُّور: هُوَ الْفُرْنُ الَّذي يَخْبزُ فيه أَهْلُ «نُوحٍ» خُبْزَهُم.

امْرَأَةُ «نُوحٍ»

وكانَتْ زَوْجَةُ «نُوحٍ» عليه السلام مِمَّنْ لا يعتقدون بنُبُوَّتِهِ، ولا يُصَدِّقُـون بِدَعْوتِـهِ، ولا يُتابِعُونَـهُ في نهجِهِ، بـل كانَتْ من القـوْم الكافريـن. ولم تَتَوقَّـفْ في كُفْرِها وسُـوءِ مُعْتَقَدِها عنـد هذا الحدِّ، بل خانَتِ الزَّوْجَ النبيَّ؛ إذ كانَتْ تَنْقُلُ إلى عُصْبَتِها الذين واطَأَتْهُم على الكُفْر أَخْبارَ «نوحٍ»، مما يزيد في طُغيان القوْم عليه، واعتدائهم وسُخريتهم!

وابْنُهُ

وكان لِـ «نوح» عليه السلام وَلَدٌ ضالٌّ قد شـايَعَ أُمَّهُ وتابَعَها في التعاطي مع الكافرين النَّافرين، واتَّحَدَ مع هؤلاءِ ضِدَّ أَبيه؛ فكان هُو أيضًا يسخَرُ من أَبيه حين يقُول بأَنَّ الطُّوفان قادِمٌ وَلَسَوْفَ يُغْرِقُ الأَرْض ومن عليها بالماء!

فَوَرانُ التَّنُّور

وأَتَـمَّ «نُـوحٌ» عليه السلام صُنْـعَ الْفُلْـك، وحَشَـرَ في السَّـفينة الحيواناتِ والطُّيُورَ.. من كُلٍّ زَوْجَيْن اثْنيْن!!

وانْتَظَر الأَمارةَ...

أَرْعَدَتِ السَّماءُ وأَبْرَقَت، وادْلَهَمَّ وَجْهُ السَّماء وَتَلَبَّد بالغُيُوم الدَّاكِنَة السَّوْداء، ثُمَّ اشتَدَّت الرِّياحُ وهطلت الأَمطارُ!

وترقَّب «نُوحٌ» فَوَرانَ التنُّور.

مَضَـتْ أَيام، والمطـرُ متواصلٌ بِغَيْرِ انقطـاع أَوْ توقُّف، وأَخَـذَتْ أَرض التَّنُّور تَفُـورُ بحُبَيْباتِ الماء، عندئِذٍ صعد

«نُـوحٌ» عليه السلام ومَـنْ آمَنَ مَعَـهُ إلى ظَهْرِ السَّـفينة، وأخَذَ كُلٌّ موْقعه فيها، واسْتَعَدُّوا.

ونادى «نُوحٌ» ابْنَهُ قائلًا:

﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾.

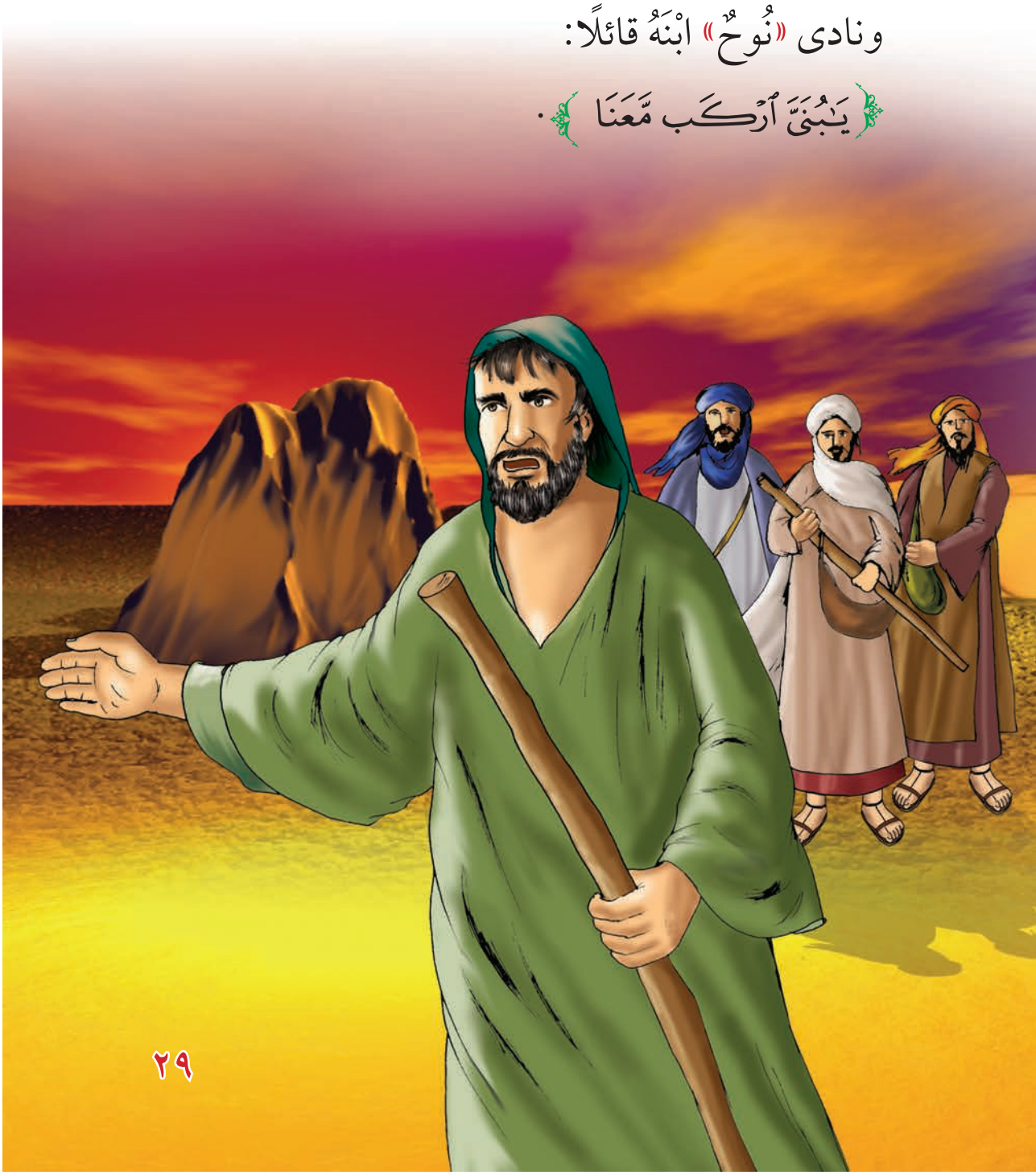

فَرَدَّ عَلَيْه:

﴿ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي [1] مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾.

قال ذلك وهُوَ يَظُـنُّ أنَّ الأَمْرَ هَيِّنٌ، وعلى عكس ما يراهُ أَبُوه، وإنْ هِيَ إلا سُيُولٌ وأَمْطار تَعَوَّدُوها من قَبْل وألفُوها، وأنَّ قِمَـمَ الجبال، في عُلُوِّها، تَعْصِمُ منها، ولم يكُنْ ليعْلَمَ ـ بسـبب كُفْرِهِ وشِـرْكِهِ وسـوء تقديره ـ أنَّ الأَمْرَ مُخْتَلف تمامًـا، وأنَّ القضيَّـة أَخطَر وأَفْـدَح، وأَنَّها عذاب وعقاب من الله تعالى. فقال لهُ أَبُوهُ مُحذِّرًا:

﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ ﴾.

الطُّوفانُ

وَأَخـذت ميـاهُ الأمطار تتجمَّـعُ في الأرْض، ثُـمَّ تَتَدفق سُـيُولًا غزيرةً، وتتجاذَبُها الرِّياح، واختلَطتْ مياه الأَنهار بمياه البحيْرات والْبحار، وأتى الموْج من كُلِّ جانب ...

(١) يعصمني : يحميني.

وبَدَأَت سَفينة «نُوحٍ» بما فيها ومن فيها تهتزُّ وتَضْطرب، ويتقاذَفُها الموْجُ من كلِّ جانب، تَعْلُو بِرُكَّابها وتَسْفُل، ثم تُسيِّرها الرِّياح في اتجاهات بعيدةٍ... الله وَحْدَهُ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعها.

وَغَرِقَ كُلُّ مَنْ على الأَرْض من إنسانٍ وحيوان ومخلُوق.

وبَعْد مُدَّةٍ انْقَطَعَ المطر عن الهُطُول، وسَكَنَتِ الرياح عن الْهُبُوبِ، وهَدَأَتِ العواصف، واسْتَقَرَّت سفينةُ «نُوحٍ» عليه السلام بِحمْلِها فوق جَبَل «الجوديِّ».

ويُقال بِأَنَّه ـ أي جَبَل الجوديِّ ـ أَحدُ جبال (أرارات) في آسيا الصُّغْرى.

ومن ثَمَّ بَدَأت الحياةُ على الأرض من جديد بالْفِئَةِ المُؤْمِنَة النَّاجية، من ذُرِّيَّةِ «نوحٍ» والذين آمنوا معه، وكانوا قلائل!!!

٣

نَاقَةُ صَالِحٍ عليه السلام

﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣
وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا
۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ
مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ
۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ
وَسُقۡيَىٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم
بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَىٰهَا ۝١٥ ﴾

صدق الله العظيم

سورة الشمس ـ الآيات (١ ـ ١٥).

كانت قبيلةُ «ثمود» تسكُنُ في مكانٍ بيْن الحجاز وبلاد الشام يُدْعى الحِجْر، ويُعْرفُ اليومَ باسمٍ آخر هُوَ «فجُّ النَّاقة».

نحتوا بُيوتَهُم ومساكنَهم في الصُّخورِ، فكانَتْ قويَّةً منيعة.

كانوا يعبدُونَ الأَصْنامَ ويُقدِّسُونها، ويقدِّمون لها النُّذورَ والقرابين، وكانوا أَهْلَ غِنًى؛ أرضُهُم خِصْبةٌ، وماشيتُهم كثيرةٌ، وبساتينُهم مَلْأَى بأنواعِ الأثمارِ والفاكهة، والينابيعُ تتدفَّقُ بالمياهِ العذبةِ الجارية.

وعلى الرَّغْمِ من النِّعَم الكثيرةِ الَّتي أعطاها لهم ربُّهم، والخير العميمِ الَّذي أَغْدقَهُ عليهم، فإنَّهم لم يُقَدِّروا هذا العَطاءَ حقَّ قدْرِهِ، بل استمرُّوا في كُفْرِهِم وشِرْكِهم!!

فأرسل اللهُ سُبْحانَهُ إليهم رسُولًا منْهم اسمه «صالح» يَنْهاهُم ويُحَذِّرُهم ويُنْذِرُهُم مِنْ عذابٍ عظيم.

وكان «صالحٌ» معروفًا بينهم بالخُلُقِ الكريم والسِّيرةِ الحسنة، ولم يكنْ غنيًّا مُتْرَفًا؛ بل كان مُتَوَسِّطَ الحال.

أَخْلَصَ «صالحٌ» في نصيحةِ قوْمِهِ، وذكَّرهم باللهِ الخالقِ، وخوَّفهم من بأسِهِ الشديد، ونهاهُم عن عبادَةِ

الأَحجارِ التي لا تضُرُّ ولا تنفعُ، ولا تسمعُ ولا تتكلَّم، ولا تُعطي ولا تَمْنع. وكان لا يترُكُ فُرْصَةً تَمُرُّ دونَ أن يَعِظَهُم، ويَهْدِيَهُم إلى الخيرِ، وَيدْعُوَهُم إلى الحق.

فاستجاب له البُسَطاءُ الضُّعَفاءُ، وآمنوا به، واستمعوا لِقَوْلِهِ واتَّبعوه. أمَّا الأغنياءُ وأصحابُ السُّلْطانِ والنفوذِ فَسَخِروا مِنْهُ، وهزِئوا به وبالمؤمنين الَّذين أيَّدوه.

وكان «صالح» يُذَكِّرُهم بأَنَّه لا يُريدُ على النصيحةِ أجرًا، ولا على الهدايةِ ثوابًا، إنَّما يطلبُ الجزاءَ من الله تعالى، كما كان يُنَبِّهُهم إلى أنَّ الَّذي لا ينتظرُ الأَجْرَ أو النَّفْعَ من الناس إنما يكونُ بريئًا من كُلِّ استِغلالٍ.

واستمرَّ عليه السلام في دعوةِ المؤمنين إلى الطاعة لله وَحْده، وأنْ لا يستمعوا إلى زُعمائِهم من الأغنياء وأصحابِ النفوذِ؛ لأنَّ

هؤلاءِ يُفسِدون في الأرضِ ولا يُصلحون.

وكان المُسْتَكْبِرون من قوْمِ «صالح» مُعاندين؛ فعَزَّ عَلَيْهم أن يُطيعُوا رجُلًا بسيطًا مِنْهُم ويُصْبحوا أَتباعًا له؛ يستشيرونَهُ ويستهْدونه! وقاموا بالفِتْنةِ؛ فجاؤوا إلى المُسْتَضْعَفين من المؤمنين وقالوا لهم:

«هل تؤمنون حقيقةً أنَّ «صالحًا» رسُولٌ من عِنْدِ الله؟».

فأجابهم المؤمنون:

«نعم، ونحن بما أُرْسِلَ به مُصَدِّقون».

فقال الْمُتَكَبِّرون:

«نريـدُ علامةً على صِدْقِ «صالح» في دَعْوتِهِ بأنَّه رسُـول من عِنْد الله؛ وإلا كان رجُلًا مَسْحُورًا، أوْ بِهِ نَقْصٌ في عَقْلِهِ، أَوْ مَجْنونًا!».

فجاء الْمُسْتَضْعَفُون الَّذين آمنوا إلى «صالح»، وأخبروه بما يقولُه الكافرون في حقِّه؛ فأتاهُم وقال لهم:

«إن كُنْتُم تريدون آيةً على صِدْقِ نُبُوَّتي، فهذِهِ ناقةٌ تخرجُ إليكُم من الصَّخرةِ!! تشْربُ من الينبُوع في يَوْم، وتشربون أنتـم في يَـوْمٍ آخـرَ مِقْدارَ مـا تَشْـرَبُ!! وتحلبُ لكُـم لبَنًا يكفيكُـم جميعًا!! ولسَـوْفَ تَـرَوْنَ أَنَّ الحيواناتِ جميعًا سَتَمْتَنِعُ عَن وُرودِ الماءِ في يوْمِ شربِ الناقة!!

إنها ـ يا قوْم ـ ناقةُ الله!!».

مضـى أَمْرُ الناقة في قومِ «صالح» على النَّحْو الَّذي ذكَرَهُ لهُـم؛ إذْ كانـتْ تقفُ عـلى فَمِ الينبـوع وتَشْـرَبُ مِنْهُ حتى تَرْتـوي؛ والقوْمُ ينظرون إليهـا ولا يقتربون، ثم يحلبونها فيـدِرُّ عليهم اللَّبَنُ مِـدْرارًا! وكانت حينَ تـأتي إلى الينبوع تنْفِرُ عَنْهُ بَقِيَّةُ الحيَوانات.

رأى ذلـك بعضُ العُقَلاءِ من النـاسِ فمالت قلوبُهُم إلى

تصديق «صالحٍ» والإيمانِ به واتِّباعه؛ لكنَّ أصحابَ الأصنام فيهم وكُهَّانَهُم منعوهُم من ذلك، وهدَّدوهُم بالْقَتْلِ والذَّبْح.

وما زال قوْمُ «صالحٍ» في رَغَدٍ من العَيْشِ وَسَعَةٍ من المال، يُحافِظُون على النَّاقة ما دامت مَصْدَرَ خَيْرٍ لهم ولا يَمَسُّونها بسُوء؛ و«صالِحٌ» عليه السلام يُسايِرُهم ويُداريهم لعلَّهم يُؤمِنُونَ.

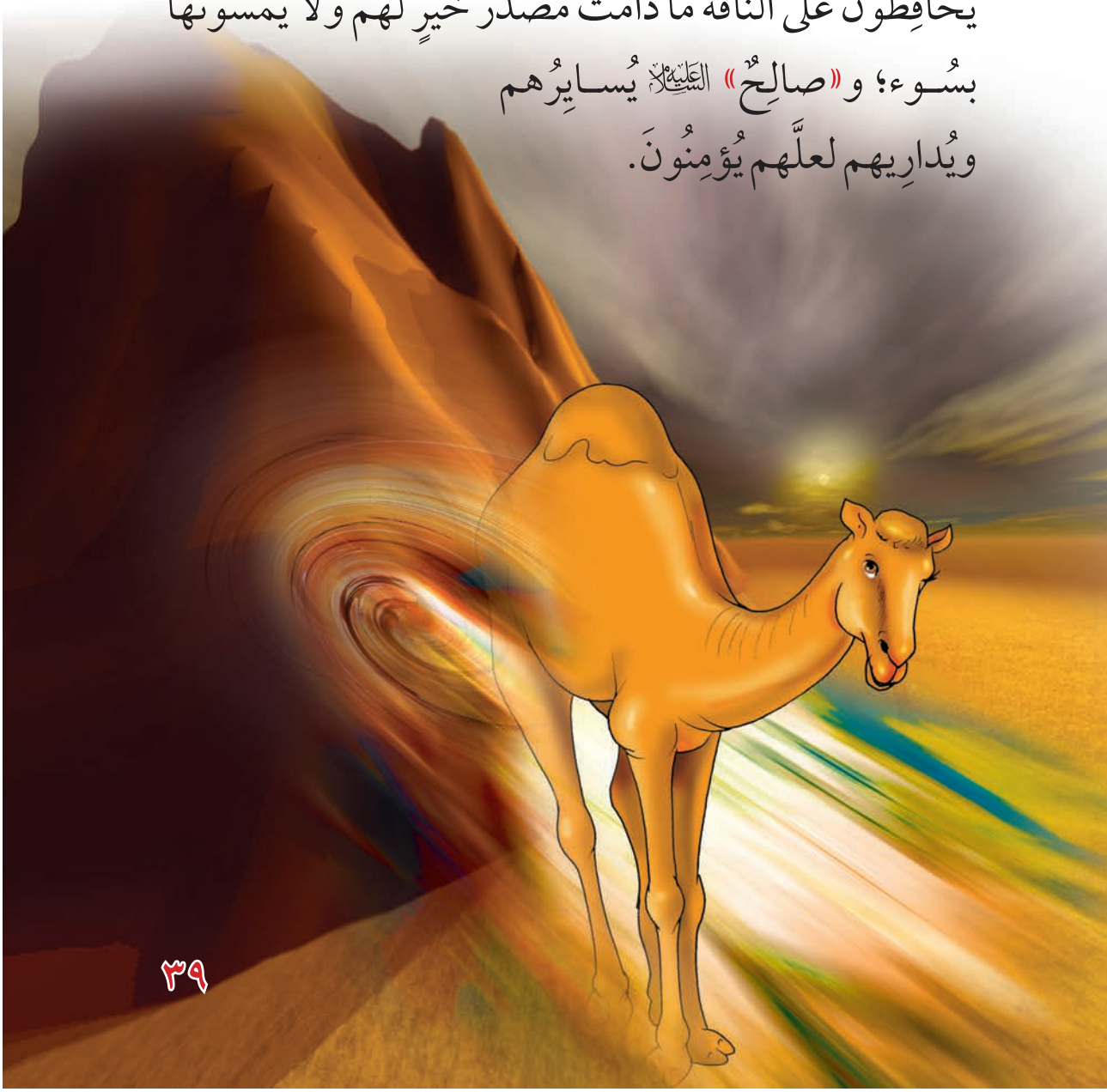

أَقْبَلَ فَصْلُ الصَّيْف، واشتَدَّ الحرُّ؛ فتركت الناقة مرعاها في الأوديةِ، وارتفعت إلى القِمم العاليةِ؛ حيثُ الهواءُ الباردُ العليل. فهربت مواشي القوم منها إلى بطن الوادي العميق حيثُ الحرُّ اللاهب، والقيْظُ الشديد؛ فمات منها عَدَدٌ كبيرٌ.

فلما كان الشتاءُ عادت الناقةُ إلى مرعاها الدافئ، فَنَفَرتْ عنها المواشي إلى أعلى الجبل متعرِّضةً للبرْدِ القارسِ والرياح العاتية؛ فَنَفَقَ[1] منها أيضًا عددٌ كبير.

كانت المواشي تخصُّ امرأتيْن من قوْم «صالح» تُدْعَيان: «صَدُوق» و «عُنَيْزة»، فاشتد حُزْنُهما لموْتِ

(١) نفق: مات . نقول: مات للإنسان، ونفق للحيوان.

مواشيهما، وقرَّرتا التخلُّصَ من الناقة؛ فجاءتا إلى رَجُلَيْن هُمَا: «مِصْدَع» و «قَدَار» ووعدتاهُما بالعَطاءِ الجزيل، وبالزَّواج منهما إذا هما قتلا الناقةَ؛ فرضيَ الرجلان، واتفقا مع سبعةٍ آخرين من القومِ على مساعدتِهما.

فأمَّا «مِصْدَع» فإنَّه بعد أن كَمَنَ لها رماها بِسَهْمٍ في عُنُقها؛ وأما «قَدارُ» فإنَّه ضَرَبَهَا بالسيف على قائمتيْها الخلفيَّتيْن، فسقطت أرْضًا، فتقدَّم منها وذبحها.

وكان للناقةِ مولودٌ رضيعٌ فَرَّ نَحْوَ الجبلِ خوفًا، وهناك رَغَا ثلاثَ مراتٍ؛ فرماهُ بعضُهم بسَهْمٍ فقتله، ثم جَرَّه ووَضَع لحمَه فوْقَ لحم أُمِّه.

وتقاسم النَّاسُ لَحْمَ الناقَةِ ووليدَهَا مُهلِّلين فَرِحين؛ ولو أنَّهم علموا ما ينتظرُهم لَمَا فرِحوا وما رقصوا؛ إذ جاءهم «صالح» عليه السلام وحذَّرهم وأنذرهم بأنهم سوف يُلاقون العذابَ والهلكةَ بعد ثلاثة أيام؛ لأنهم انتهكوا حُرْمةَ الله بعَقْرِهم الناقة، فأخذوا يَهْزَؤون مِنْهُ ويَسْتَنْجِزُونَهُ ما أَوْعَدَهم مِنَ العذاب!

فقال لهم «صالح»:

«في صباح الغد تَسْتيقظونَ فتكونُ وجوهُكُم مُصْفَرَّةً، وفي اليوم الثاني تكونُ وجوهُكُم مُحْمَرَّةً، وفي اليومِ الثالثِ تكونُ وجوهُكُم مُسْوَدَّة».

فلمَّا كان صباحُ اليوْم الأوَّلِ استيقظوا فكانت وجوهُهم صَفْراءَ كما قال لهم؛ ولكنَّهم لم يُبالوا وظنُّوا أنَّهم مَرْضى فقط!

ولمَّا كان صباحُ اليوم الثاني رَأَوْا وجوهَهُم حمراء كما قال لهم أيضًا؛ ولكنَّهم لم يَهْتمُّوا بل قالوا لعلَّها رَدَّةُ الدَّمِ إلى الجسم والوَجْهِ بعدَ صُفْرَةِ المرض.

فلمَّا كان الْيَوْمُ الثالثُ ورأَوْا وجوهَهُم سوْداءَ مُظلمةً، أدركوا أنهم كانوا يخدعون أنفسَهم في الأيامِ السابقة؛ واعتقدوا أنَّ الأمر جِدٌّ كَما أنبأهُم «صالح»؛ فأرادوا أن يَفْتِكوا به ويَقْتُلوه قبل أن يموتوا هُم!

فجاؤوا إليْه وهو نائمٌ يريدون التخلُّصَ منه والقضاءَ عليه، فلمَّا دَنوْا مِنْهُ أخذتْهُم الرَّجْفةُ وسقطت عليهم من السَّماءِ صاعِقَةٌ مُدَمِّرةٌ فأهلكتْهم جميعًا. ونجَّى الله تعالى نبيَّهُ «صالحًا» والذين آمنوا معه، وعاقبَ الكافرينَ الظالمين.

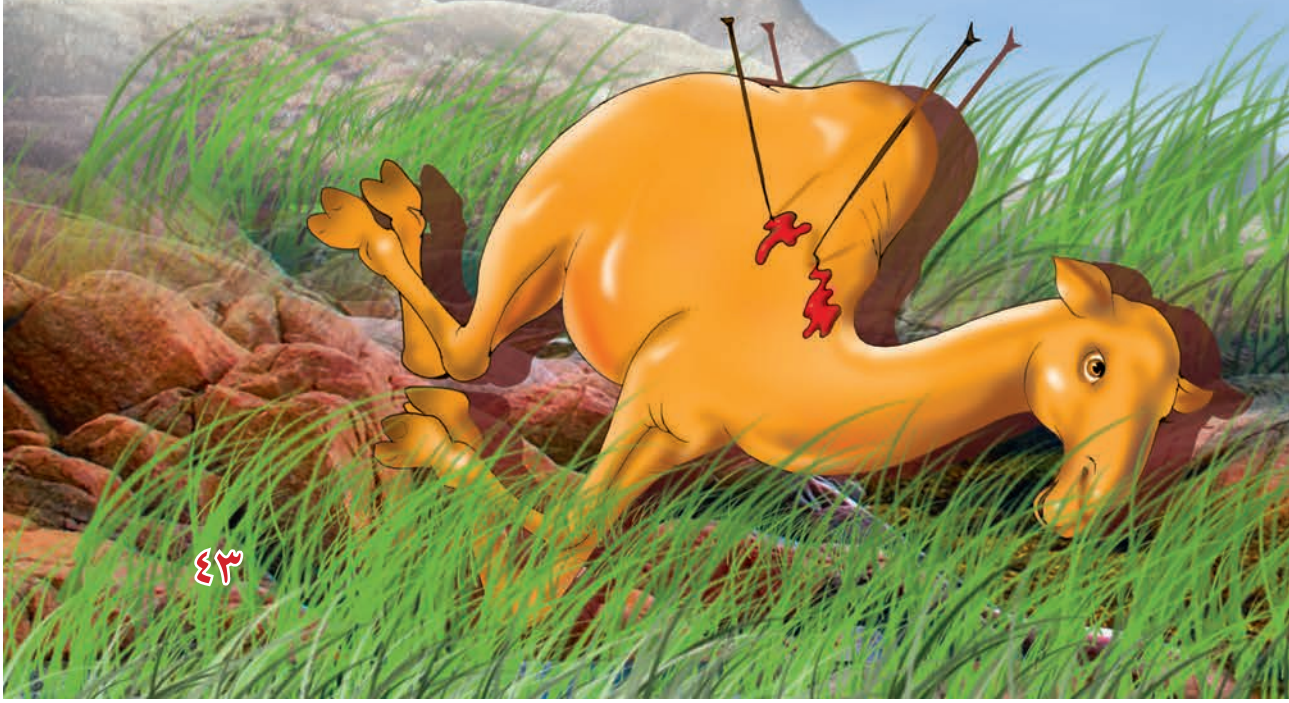

٤

طُيُورُ إِبْرَاهِيمَ

عليه السلام

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

صدق الله العظيم

سورة البقرة ـ الآية (٢٦٠).

وُلِدَ سيدُنا «إبراهيم» عليه السلام في أُمَّةٍ كانت تعبُدُ الأصنام، وكان والدُه «آزر» نجارًا يَنْحَتُ الأخشابَ، ويصنعُ منها التماثيلَ، ثم يبيعُها للناس.

فلمَّا كَبِرَ «إبراهيم» عليه السلام كان ينظرُ بدهْشَة إِلى عَمَلِ أبيه وقوْمه.

فلمَّا ألقى الله ـ سبحانه ـ في قلب «إبراهيم» الإيمانَ وهداهُ إِلَيْه، أخذ ينصَحُ أباه بتركِ هذا العمل؛ لأنه كان ولدًا مُحِبًّا عَطوفًا مملوءًا حَنانًا؛ فلم يستجبْ له والدُه.

نظر «إبراهيم» إلى القمر بازغًا في الليل؛ ينيرُ الكونَ كُلَّهُ، فقال:

«هذا ربِّي!».

فلَمَّا غابَ نُورُهُ مَعَ شُروقِ الشمسِ وانتشارِ أشعَّتِها على الدنيا، قال إبراهيمُ:

«بل هذا ربِّي، هذا أكْبر».

ولمَّا حانَ وقْتُ الغُروب، وضعُف نورُ الشمس، وبدأتْ في المغيب؛ قال «إبراهيم»:

«إني لا أُحِبُّ الآفلين، ولا شكَّ أَنَّ «الله» أكبرُ وأعظمُ مِمَّا رأيْتُ، وهو الخالقُ لهذا كُلِّه».

ثم إن «إبراهيم» عليه السلام نوى أن يُثْبِتَ لأبيهِ وللناسِ جَهْلَهُم وغُرورَهم؛ فدخل يومًا إلى المعبدِ حيث تُوجَدُ الأصنامُ، وأخذ يحطِّمُها بفأْسٍ كان يحملُها معه. فلمَّا انتهى منها جميعًا إلا أَكْبَرَها، علَّق الفأْسَ برقبتِهِ، ثم خرج.

فلمَّا حَضَرَ النَّاسُ إلى المعبد، ورأَوْا ما حَلَّ بأصنامِهم حَزِنوا، وظَنُّوا بأنَّ «إبراهيم» هو الذي حطَّمها، فأحضَروه وسألوه، فقال:

«لا أدري مَنْ فعل ذلك، ولكن اسألُوا كبيرَ الأَصنام لعلَّه يُخْبِرُكم بذلكَ إنْ كان ينطِقُ ويتكلَّم!».

عندئذٍ أدركوا ما هُمْ عليْه من الجَهْلِ والسُّخْف؛ ولكنَّهم رفَضُوا أَنْ يَقْبلوا كلمةَ الحقِّ.

وأرسلَ مَلِكُ البلاد «النَّمرود» عَدَدًا من جُنْدِه ليأتوا بإبراهيم؛ ثم أخذ يُكلِّمُهُ ويُناقشُهُ؛ وقال له:

«من ربُّك؟».

فقال «إبراهيم»:

«ربِّيَ الَّذي يُحْيي ويُميت».

فقال الملك:

«وأنـا أيضًـا أُحْيي وأُميـت؛ فَأَعْفو عن المحكـوم عَلَيْه بالإعدام فأُحْييهِ من الموت؛ وأَحكُم على غيره بالقتلِ ويُقْتَل».

ففكَّر «إبراهيم» قليلًا، ثم قال:

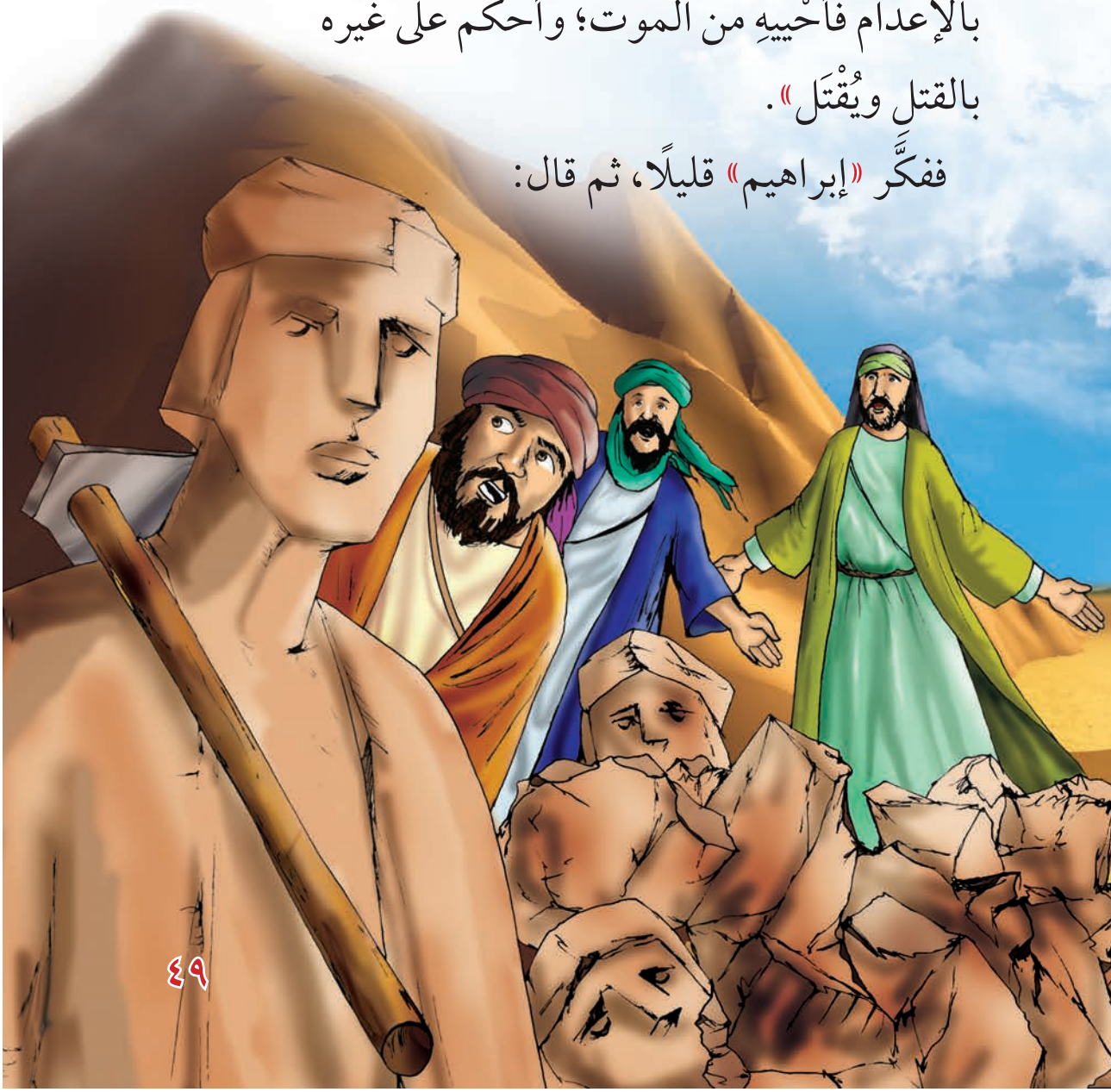

«إن ربي يأتي بالشَّمْسِ من المشرِق؛ فَهَلْ تستطيعُ أنت أن تأتيَ بها من المغرِبِ؟».

فسكت الملكُ ولم يستطعِ الإجابة.

لقد كانت حُجَّةُ «إبراهيم» قويَّةً مَعَ الناسِ وَمَعَ الملك؛ ولكنَّهم جميعًا اتَّخذُوا قرارًا بِحَرْقِ «إبراهيم» للتخلُّصِ مِنْهُ!!

وأخذ النَّاسُ يجمعون الحطبَ من كُلِّ مكانٍ، حتى أصْبَحَ كومة عالية؛ ورُبِطَ «إبراهيم» إلى عمودٍ في وسطِ هذه الكَوْمة.

ولمَّا جَلَسَ الملكُ على شُرْفَةِ قصره وحاشِيَتُهُ مِنْ حَوْلِه، والنَّاسُ مُحْتَشِدون ومُتَجَمِّعُون في الساحةِ العامَّةِ التي سيُحْرقُ فيها «إبراهيم»؛ أعطى الملكُ أَمْرَهُ بإشعالِ النَّار؛ وما هي إلا دقائقُ حتى كانت ألسنَةُ النارِ تتعالى في الجوِّ.

ولكـنَّ رحْمةَ الله تعـالى لا تَغيبُ عن عبـادِه المؤمنين، فانْطَفَأَتِ النِّيران، وذهب كَيْدُ الكافرين، وفشَلَ تدبيرُهم؛ ونجا «إبراهيمُ» من ظلمِهم.

ثم ازدادَ إيمانُ «إبراهيم» بربِّه وتعلُّقُه به؛ وحاوَلَ للمرةِ الأخيـرةِ أن يُقْنعَ أَباهُ بتـركِ عبادةِ الأصنام والتوجُّهِ إلى الله وَحْده، فلمَ يَسْتمعْ لَهُ.

فتـرك «إبراهيمُ» البلـد الذي كان يسـكنُهُ في «العراق»، وتوجَّـه إلى «حَوْران» من أرض الشـام وَمَعَهُ بعضُ الَّذين آمنـوا به، وكانوا عـددًا قليلًا، منهم زوجتُه «سـارة» وابن أخيه «لُوط» عليهما السلام.

ولـمْ يَبْقَ في «حَـوْران» طويلًا، فغادرها إلى «فلسـطين» حيثُ أقَام في «نابلس»، وكانت تُدْعى قديمًا «شكيم»، وفي «نَابلـس» أيضًا لمْ يَلبثْ طويـلًا، فتركها إلى «مِصْرَ» وكأَنَّ شيئًا غَيْبيًّا من عندِ الله تعالى كان يشدُّه نحوَ الجنوب.

وفي «مِصْر» أهدى إليه المِلكُ الذي أكرمَهُ جاريَةً تُدْعى «هاجَر».

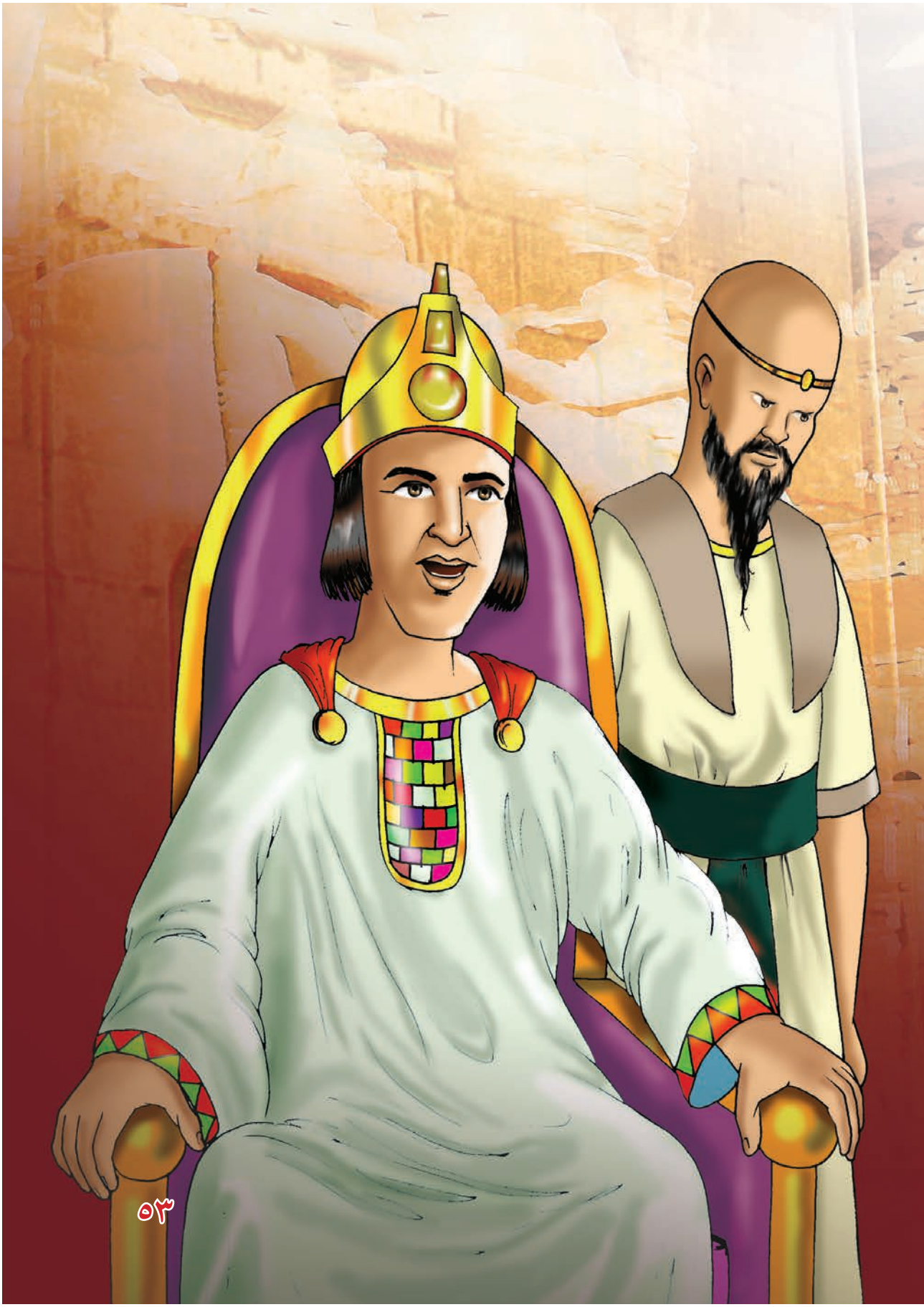

«إِبْراهِيمُ» الْخَلِيلُ

كان «إبراهيم» عليه السلام مؤمنًا شديدَ الإيمان بالله تعالى، مُعْتَرِفًا شاكِرًا. ولقد بَلَغَتْ محبَّتُهُ لِرَبِّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ دَرَجَةً عُظْمى من الطَّاعة.

كما كانَ عليه السلام يُؤْثِرُ ربَّهُ على كُلِّ شيءٍ في الوُجُود، ولا يُلْهيه شيءٌ عن ذكرِ الله وإقام الصَّلاة؛ لهذا كُلِّه اشتهر «إبراهيم» بين الأنبياء بِأَنَّه «خليلُ الرَّحْمن».

إِحْيَاءُ الْمَوْتَى

عندما ناقش الملكُ «النَّمْرود» سيدَنا «إبراهيم» عليه السلام في الله؛ وقال له «إبراهيم»: «إن ربّي يُحْيي ويُميت»؛ فأجابه الملك: «وأنا أيْضًا أُحْيي وأُميت».

ظَلَّتْ هذه الكلماتُ عالقةً في ذهنِ «إبراهيم»، ويفكِّرُ فيها دائمًا. وفي إحدى مُناجاتِهِ لله تعالى قال «إبراهيم» لربِّه:

«ربِّ أَرِني كَيْفَ تُحْيي الموتى؛ إذ إنني أريدُ أن أرى

ذلك بأُمِّ العيْن».

فقال الله تعالى مُعاتِبًا نبيَّهُ:

«أَوَ لَمْ تُؤْمنْ؟! وَهَلْ تَشُكُّ يا «إبراهيم» في قُدْرتي على ذلك؟».

فأجاب «إبراهيم» في خُضوع وحَياء:

«بلى، ولكن ليطمئِنَّ قلبي؛ وأريدُ أن يَسْتيْقِنَ فُؤادي».

عندئذٍ أَمَرَهُ الله تعالى أنْ يأْتيَ بأربعةِ طيورٍ فَيَذْبَحها ويقطِّعها، ثُمَّ يفرِّقها ويوزِّعَها على رؤوسِ الجبال والقِمم

العاليـة؛ ثم يناديها بعدَ ذلـك ويدعُوها إِلَيْـه، فَتَرْجعُ حَيَّةً بإِذْنِ الله وَكأَنَّها لم تُذْبَحْ ولم تُقَطَّعْ.

فقام «إبراهيم» عليه السلام، وَجَمَعَ أَرْبَعَةً من الطُّيُورِ، وفَعَلَ بها كما أَمَرَهُ الله تعـالى، وبَعْثَرَ أَجْزاءَها بَعْدَ ذَبْحِها وتَقْطيعِها؛ ثُـمَّ ناداهـا أن تعـودَ إليْه بأَمْـرِ الله حيَّـةً؛ فجـاءَتْ مُرَفْرِفةً وحطَّتْ بَيْنَ يَدَيْه؛ فَسَـجدَ «إبراهيم» عليه السلام خُشـوعًا لقُدْرَةِ الله سُبْحانَه.

واطمأَنَّ قلبُهُ بأنَّ الْبَعْثَ بعد الموتِ حقٌّ؛ حيثُ يُجازَى المُحْسِنُ على إحسانِهِ والمُسِيءُ على سَيِّئَتِهِ.

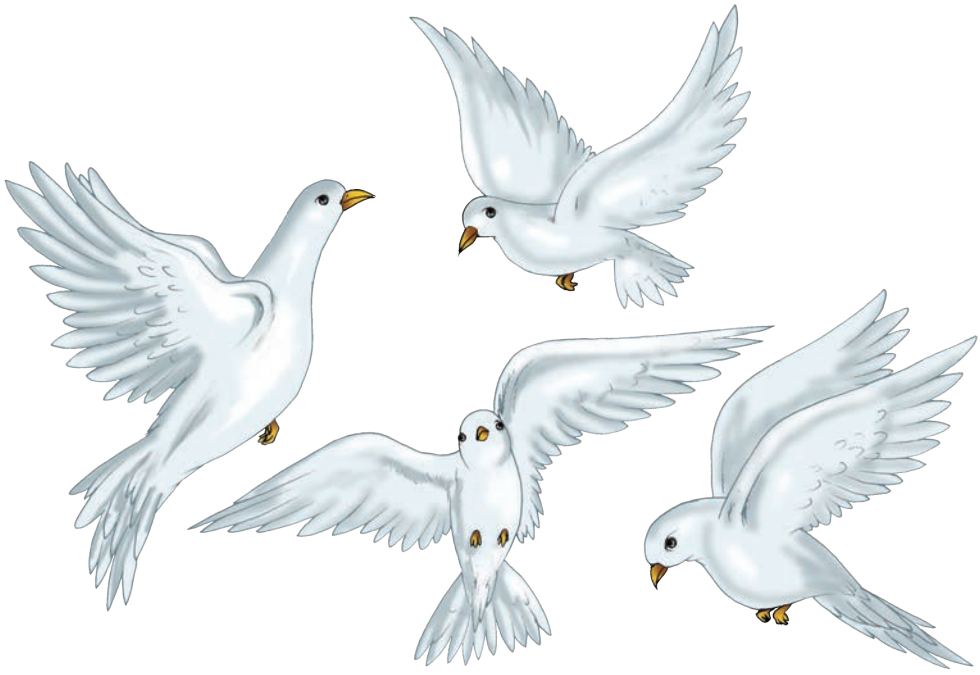

٥

حَبْشُ إِسْمَاعِيلَ

عليه السلام

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

صدق الله العظيم

سورة الصافات ـ الآيات (١٠٢ ـ ١١١).

كانت «سارةُ» زَوْجَةُ سيدِنا «إبراهيم» عليه السلام عاقرًا لا تَلِدُ، فكانت تَتَأَلَّمُ لذلك، ولأَنَّها لا تجدُ نَسْلًا لها وذُرِّيَّةً.

وتَقدَّمتْ بها السِّنُّ فكَبِرَتْ وشاخَتْ، وخطر لها أن تُحدِّثَ زوجَها بالزَّواجِ من جاريتهما «هاجر»؛ لعلَّ الله تعالى يرزُقُهما بِوَلَدٍ.

وبَعْدَ إِلحاحٍ منها قَبِلَ «إبراهيم» ما عَرَضَتْهُ عَلَيْه؛ وتزوَّج من «هاجر»، فَوَلَدَتْ له «إسماعيل» عليه السلام، فتعلَّقَ قلبُ «إبراهيم» بِوَلَدِه، وأعطاهُ الكثيرَ من حنانِهِ وَمَحبَّته.

رَأَتْ «سارةُ» هذا التحوُّلَ في حياةِ «إبراهيم»، فاشتعلت الغَيْرةُ في قَلْبِها؛ وطَلَبَتْ إلى «إبراهيم» أن يأْخُذَ «هاجر» وولدَها «إسماعيل» إلى مكانٍ بعيد، وأن يرحَلَ بهما عن بَيْتِها.

فخرج «إبراهيمُ» عليه السلام ومَعَهُ «هاجر» و«إسماعيل» إلى أَرْضِ الحِجاز، وأقامَهُما في وادٍ ليس فيه زَرْعٌ ولا ماءٌ ولا بشر، وتَرَكَ مَعَهُمَا بَعْضَ الطعام والشَّراب، فقالت «هاجر» لـ «إبراهيم»:

«هل ربُّك أَمَرَك أن تترُكَنا هُنا؟».

فقال «إبراهيمُ»:

«نعم».

فقالت «هاجر» المؤمنة:

«إن الذي أَمَرَكَ لا يُضَيِّعُنا».

ثم وَدَّع «إبراهيم» زوجتَهُ وَوَلَدَهُ وهو دامعُ العيْنِ حزينُ النَّفْسِ، ثم دعا رَبَّهُ أَنْ يَرْعى الأُمَّ وولدَها، وأن يحفظَهما من كُلِّ مكروه، وأَنْ يَرْزقَهما من الثَّمَراتِ، ويجعلَ قُلوبَ النَّاسِ تحنُّ إلَيْهما، ويعْمر المكانُ.

ثُمَّ عاد إلى ديار زوجتِهِ «سارة»، ولكنَّهُ كان يزورُ «هاجر» و«إسماعيل» من حينٍ لآخر؛ ليطمئِنَّ إليْهما وإلى استقرارِهما في تِلْك الأرض.

ومَرَّتْ أَعْوامٌ طِوالٌ، وَبَلَغَ «إسماعيل» عليه السلام مَبْلَغَ الشَّباب، فكان له من العمر ثلاثَ عَشْرةَ سنة، اكتمل فيها نُمُوُّه، وظهرتْ على مُحَيَّاهُ معالمُ الرُّجولةِ والنَّباهة؛ فكان «إبراهيم» عليه السلام يزدادُ تعلُّقًا به ومحبَّةً له، وشوقًا دائمًا إلى رؤيتِه.

وفي إحـدى الليالي وبينمـا كان «إبراهيم» عليه السلام غارقًا في سُباتٍ عميق، أراهُ الله تعالى رُؤْيا فيها امتحانٌ عسيرٌ وابتلاءٌ شديد؛ لأن رُؤْيا الأنبياء وَحْيٌ من عندِ الله عَزَّ وجلَّ.

رأى «إبراهيـم» في منامِهِ أَنَّه يتلقَّـى أَمْرًا من عند الله بذبْحِ وَلَدِهِ الوحيد «إسماعيل» تَقَرُّبًا إليه سبحانه، فاستيْقَظَ مذعورًا

خائفًا، ولم يُحَدِّثْ بهذا الحُلُم أَحَدًا، لكنَّ الحُلُمَ تكرَّر في ليالٍ ثلاثٍ، فأدْرَكَ أن لا مَهْرَبَ من تنفيذ هذا الأمْر.

ولكي لا يكونَ فِعْلُ «إبراهيم» ظُلْمًا وعُدْوانًا، أَخْبَرَ «إسماعيل» بما أُمِر؛ فقال له:

«يا بُنَيَّ إِنِّي أرى في المنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فانْظُرْ ماذا ترى؛ وفكِّرْ في هذا الأَمْر».

وكان «إسماعيل» عليه السلام صادقَ الوعْد، شديدَ الإيمان، ثابتَ الْعَزْمِ واليقين؛ وكان رسُولًا نبيًّا؛ فقال لأبيه «إبراهيم»:

«يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَر به من عند الله، وستجدُني إن شاء الله من الصابرين الذين لا يهْربون من قضاءِ الله وقَدَرِه، ويُنَفِّذون مشيئةَ الربِّ سُبْحانه».

ثُمَّ خَرَجَ «إبراهيم» ومعه «إسماعيل» من الْبَيْتِ دون أن تعْلَمَ «هاجَرُ» شَيْئًا، وقد حَمَلَ «إبراهيم» مَعَهُ سكينًا حادَّةً؛ فلمَّا ابتعدا عَنِ البيْت، أَخذ «إبراهيم» يفكِّر فيما هو مُقْدِمٌ عليْه من الأمر الخطير، وَبَدَأَتْ وَساوِسُ الشَّيْطانِ تَعْمَلُ عَمَلَها في نَفْسِهِ، وتخايلَ «إبليسَ» اللَّعينَ يقولُ له:

«إِلَى أَيْـنَ أَنْتَ ذاهب؟ وهل تنفِّذُ حُلُمًـا رأيْتَهُ وَمَنامًا مَرَّ بِكَ فَتَذْبَح وَلَدَكَ الوحيد؟! أَيُّها المجنون عُدْ إلى صوابكَ وعَقْلِكَ!».

لكـنَّ إيمـان «إبراهيـم» عليه السلام كان أقـوى مـن وسْوَسَـةِ الشـيطان «إبليـس»، فمَـدَّ «إبراهيـم» يَدَهُ إلى الأرض وتنـاول حجرًا رمى به خَيالَ الشَّيْطان الذي انتصبَ له في طريقه، ثم مشـى، وتكرَّر هـذا العملُ من «إبراهيم» ثلاث مراتٍ.

وبَعْـد أن انتصرَ «إبراهيم» على الشـيطان، أضجَعَ وَلَدَهُ «إسـماعيل» إلى الأرض، وجعل وجْهَهُ في مُقابلِ التُّراب، وأَسْـلَمَ كُلٌّ مـن الأبِ والابـن أمْرَهُ إلى الله تعـالى؛ ثم رَفَعَ «إبراهيم» السِّـكينَ وأهْوى بها إلى رَقَبـةِ ابنه؛ فلمَّا قاربَتْها سَمِعَ نداءً من السَّماءِ يقولُ لَهُ:

«لقـد صَدَّقْـتَ يا «إبراهيم» أَمْرَ الله تعـالى؛ وما كان هذا الأمْرُ إلا امتحانًا لك في تنفيذِ هذه المُهِمَّةِ الشاقةِ العسيرةِ في طاعـة الله؛ وكذلـك أَرَدْنَـا أن نمتحِـنَ صِـدْقَ إيمـان «إسماعيل» في اسْتِسْلامِهِ لهذا الأَمْرِ الخطير؛ فَتَوَقَّفْ عن مُتابعةِ التَّنْفيذ، وسـنَفْدي هذا الابنَ المُؤْمنَ الصابرَ بِفِدْيةٍ كبيرةٍ وذِبْحٍ عظيم».

اسـتمع «إبراهيـم» لِنداء الله بَقْلبٍ خاشـعٍ، ثـمَّ نظر إلى جانِبِهِ فرأى كبْشًـا أقْرنَ[1]؛ فَتَقَدَّم مِنْه «إبراهيم» وأَمْسَكَهُ، ثـم أَضْجَعَـهُ إلى الأرض وذبَحَـهُ، فسـالتْ دِمـاؤه، ونظر

(١) كبشًا أقْرنَ : خروفًا لهُ قرنانِ كبيران.

كُلٌّ من الأبِ والابنِ إلى حكمةِ الله تعالى وَحُسْنِ تدبيرِه، فازدادا إيمانًا وتوثُّقًا منه سُبْحانه.

لَقَدْ أَسْلَمَ «إبراهيم» عليه السلام أَمْرَهُ إلى الله تعالى في تنفيذ أَشَقِّ وأَصْعَبِ أَمْرٍ على والدٍ لم يُرْزقْ من البنين سوى واحدٍ؛ وبعد طولِ انتظار. وأَسْلَمَ «إسماعيل» عليه السلام أَمْرَهُ إلى الله في الخضوعِ لمشيئةِ الباري في تحقيقِ الإرادة الرَّبَّانيَّة؛ والتَّضْحيةِ بالروح، وهي أغلى ما يملكُ الإنسانُ، دون تردُّدٍ أوْ خوف.

لهذا سُمِّيَ أحفادُ «إبراهيم» و «إسماعيل» بالمسلمين؛ أي الذين يُسْلمون أُمورَهم كُلَّها إلى الله تعالى. وهذا الدينُ ـ كما ترى ـ هو دينُ الله في الأمم السابقةِ واللاحقة.

وعادَ «إبراهيم» و «إسماعيل» إلى الْبَيْتِ بنَفْسٍ راضيةٍ وهِمَّةٍ عالية، وأخبر «إبراهيم» زوجتَهُ «هاجر» بما حَدَث، فَدَمَعَتْ عيناها خشيةً ومحبَّةً وشُكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ.

٦

ذِئْبُ يُوسُفَ عليه السلام

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

صدق الله العظيم

سورة يوسف ـ الآيات (١١ ـ ١٥).

عُرف سيدنا «إبراهيم» عليه السلام بأَنَّه «أبو الأنبياء»؛ فقد كان من ذُرِّيَّته ونسلِهِ سِلْسلةٌ من الأَنبياء ـ عليهم السلام ـ، نَذْكر مِنْهم: «إسماعيل»، و«إسْحاق»، و«يعقوب» و«يوسف». وكان آخرَهُم وخاتمَهُم سيدُنا «محمد بن عبد الله» صلى الله عليه وسلم.

ونتوقف عند «يعقوب» قليلًا.

فعندما شَبَّ وبَلَغَ مَبْلَغ الرجال، ارْتَحل من أرضِ «فلسطين» إلى «بابل» في «العراق»؛ حَيْثُ يقيم أهْل جدِّه «إبراهيم» وجدَّتِهِ «سارة»، وهُناك تَعَرَّف إلى أَخوالِهِ الَّذين رحَّبُوا بِهِ، وأكرمُوهُ وأَضافُوهُ.

وكان لأحد أخواله فتاتان، إحْداهُمَا تُدْعى «ليئة»، والأُخرى «راحيل»؛ فمال قلْب «يعقوب» إِلَى «راحيل»، وطلب من خالِهِ أنْ يُزَوِّجه إِيَّاها، وأَفْصَحَ عما في نَفْسِهِ من حُبٍّ لـ «راحيل». لكنَّ خالَهُ رَفَضَ طَلَبَهُ؛ لأن «ليئة» هي الابنةُ الكُبْرى، ولا يُريدُ أَنْ يُزَوِّجَ أختها الصُّغْرى قَبْلها.

ولم يجدْ «يعقوبُ» سبيلًا لإِقْنَاعِ خالِهِ بما يُريد، فَقَبِلَ الزواج من «ليئة»؛ إذ كانَ عليه السلام حريصًا على وَصْلِ حَبْل

الوُدِّ بينه وبَيْن أخوالِهِ وذوي رَحمِهِ في أرض «بابل».

وولدتْ لهُ «ليئة» أكثر أَبنائِهِ الذُّكور...

ومـرَّتْ سـنوات طويلـة، و«راحيـل» لا تزال مـن غَيْر زواج، و«يعقـوب» مـا يـزال قلْبُـه مُعلقًا بهـا، فَأَفضى إلى خالـه مـرَّةً ثانية بالـزواج مـن «راحيـل»، فَرَضِـيَ الخال ولكـن بشـرط أَنْ يخدمـه «يعقوب» عَشْـر سـنين، تَكونُ مَهْرًا لِـ«راحيل»، فَقَبِلَ «يعقـوب» وتَزوَّجها، فَوَلَدَتْ له: «يوسف» و«بِنْيامين».

كان إِخْوَةُ «يُوسُـف» كُلَّما رَأَوْا والدَهم «يعقوب» يضمُّ «يوسُـفَ» إِلَيْه بحنانٍ ومحبَّة، ويفضِّلُـه عليهم، يغتاظون ويَحْقدون.

وكان أكْثَرَ ما يُثيرُ حِقْدَهم صفاتُ «يُوسُفَ» عليه السلام ؛ فَقَدْ كان جميلًا فائقَ الحُسْن، كريمَ الأخلاق، سامِيَ الصِّفاتِ والفضائِل.

وفي يَـوْمٍ اجْتَمَع هؤلاء الإخوةُ: «رَؤُبين» و «شَـمْعون» و«لاوى» و«يَهُوذا» و«يَسـاكِر» و«زَبُولُـون»، وقالوا فيما بَيْنَهُم:

«إنَّ «يوسف» وأخاهُ «بِنْيامين» أَحَبُّ إلى أبينا مِنَّا يُفَضِّلُهما عَلَيْنا، ويَخُصُّهُما بِكُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٍ وَحَسَن. فلابُدَّ من التَّخَلُّصِ مِنْهُما». ثُمَّ اتَّفقوا على مؤامرةٍ يُنَفِّذُونَها.

وفي إحدى اللَّيالي رأى «يُوسُفُ» عليه السلام منامًا، وَعِنْدما اسْتَيْقظ حكاهُ لأَبيه وقال:

«لقد رأَيْتُ اللَّيْلَةَ رُؤْيا، رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كوْكبًا[1] والشَّمْسَ والْقَمَرَ ساجدين لي».

فقال له والِدُهُ «يَعْقوب» عليه السلام:

«يا بُنَيَّ لا تُخْبِرْ إِخْوَتَكَ بِهذِهِ الرُّؤيا؛ لأَنها دليلٌ على مكانةٍ عظيمةٍ يُعِدُّهَا الله تعالى لَكَ؛ فَلَوْ عَرَفوا بها ازْدادَ حِقْدُهم عَليْك وكُرْهُهم لَكَ فآذَوْكَ».

فأطاع «يوسف» أباهُ.

(١) الكوكب: النَّجْم.

وجاءَ إخوةُ «يُوسُف» إلى أَبيهم وقالوا لَهُ:

«نُريـدُ يا أبانـا أن نَذْهَبَ غدًا إلى الغابـة للنُّزْهة، وقضاء يومنـا كلِّه هُناك نَمْرَحُ ونَلْعَـبُ؛ ونريدُ أنْ نأخُذَ مَعنَا أخانا «يُوسُف»؛ لكي يَلْهُوَ ويَتَنَزَّه».

اِسْتَمَع «يعقوبُ» إلى أَوْلادِهِ ولم يَنْشرِحْ صَدْرُهُ لِقَوْلِهِم، فَسَـكتَ ولم يُجِبْهُمْ بِشَـيْءٍ؛ فَأحسُّـوا بأَنه غَيْرُ راضٍ عن طَلَبِهِم، فقالوا:

«يا أبانا، مالَكَ لا تَأْمَنَّا على «يُوسـف»؟ ويَشْهدُ الله بأَنَّنا نُحِبُّهُ ونُشْفِقُ عَلَيْه».

عندئذٍ قال «يعقوب»:

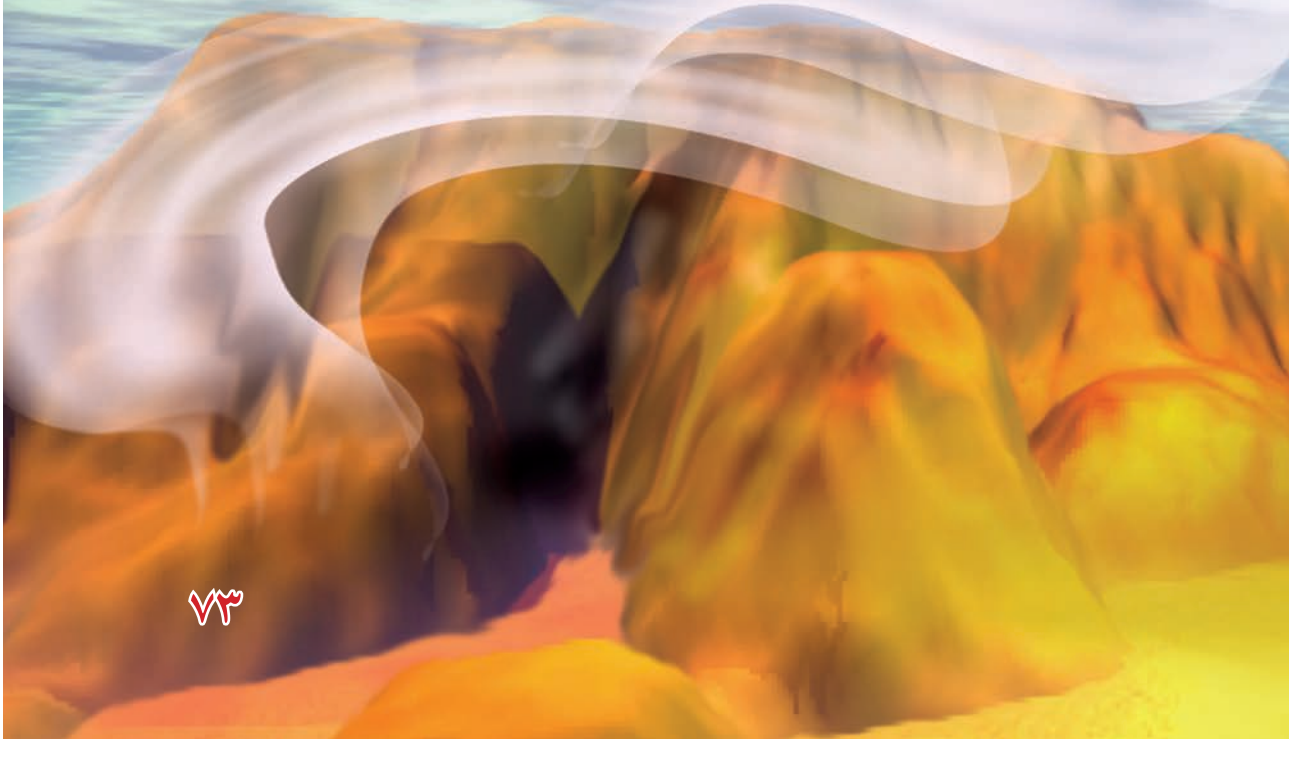

«أخافُ أن يأْكُلَه الذِّئْبُ وأَنْتُم عَنْهُ غافلُون».

فقالوا:

«بلْ نحنُ نحرُسُه ونحميه من كلِّ أذى... ثُمَّ كيْف يَأْكُلُه الذِّئْبُ ونَحْنُ عُصْبَةَ[1]؟».

وظلُّوا يُلِحُّون في الطَّلب حتى أَقْنعوا والدَهم.

وفي الْيـوْمِ التـالي خرجـوا إلى الْغابَـةِ حامليـن زادَهُم من الطَّعامِ والشَّـرابِ، وكانوا قد بيَّتوا نِيَّةَ الْغَدْرِ بـ «يوسـف»، ووَجَدُوا فيما ذَكَرَهُ والِدُهُم عن الذِّئْب فُرْصةً لِلاحتجاج.

وكان «يوسُـفُ» عليه السلام ـ في ذلك الحين ـ غلامًا لم يتجاوز الثانيةَ عشرةَ من عمرِهِ، ولا يعرفُ معنًى للحيلَةِ والمكْر؛ فظنَّ بـأَنَّ إِخْوتَهُ عِنْدما أَخَذُوهُ مَعَهُم للنُّزْهة، إنما فعلوا ذلك حُبًّا لَهُ وعَطْفًا عَلَيْه، فاطمأنَّ إِلَيْهم وشاركهم لَهوَهُم ولعِبَهم.

فَلَمَّـا كان وقْـتُ الْعَصْـر، حَمَلُـوهُ ورمَوْهُ في بِئْـرٍ كانَتْ قريبـةً من مـكانِ لَهْوِهم؛ وظنُّوا أَنَّهم قـد تخلَّصوا مِنْهُ إِلى الأَبَـدِ. وكان عَمَلُهُـم هذا نتيجـةَ رأي رآهُ كبيرُهم ووافَقَهُ

(١) عُصْبَة: جَماعَة.

عَلَيْه الآخرون.

ثُمَّ لطَّخوا قميصَ «يوسف» بِدَمٍ كذِبٍ؛ بعدَ أن ذَبَحوا طَيْرًا ومَرَّغوه بالقميص.

وجاؤوا أباهُم عِشاءً يَبْكون؛ فَخَفَق قلبُهُ وسَأَلَهُم بِلَهْفَةٍ عن «يوسف»، أَيْن هُوَ؟ فقالوا:

«لقد أَحْبَبْنا أن نتسابَقَ في الرَّكْض، فَتَركْنا «يوسف» عِنْد مَتاعِنَـا[1]، وحينَ عُدْنا رأيْناه جُثَّة مُمَزَّقـة قد أَكَلَهُ الذِّئْب؛ وهذا قميصُهُ المُلَطَّخُ بِدَمِهِ؛ وإننا لآسِفُون على «يُوسُف»؛ ونَعْلَمُ أَنَّك لنْ تُصَدِّقَنا فيما نَقُول».

وأخذوا يبْكُون كَذِبًا ونِفاقًا.

وتنـاوَلَ «يَعْقُـوبُ» عليه السلام القميصَ بيـدٍ مُرْتجفـةٍ وَعَيْنٍ دامِعَـةٍ، ثم قرَّبَهُ مِنْهُ، لكِنَّهُ لـم يجدْ فيه تمْزيقًا ولا تَقْطيعًا!

فالْتفَتَ إلى أوْلادِهِ قائلًا لهُم بتهكُّم وسُخْرِيَة:

«مـا أَحْلَمَ هـذا الذِّئْـبَ الـذي أَكَلَ ولدي، ولـم يُمَزِّقْ قميصَـهُ؛ إنَّكُـم تَكْذبُـونَ، أَلَيْسَ كذلـك؟ لقَـدْ غَدَرْتُمْ بِهِ

(١) مَتاعنا: أغراضنا وأمتعتنا وسواها مِمَّا يكونُ مع المُتَنزِّهين.

أيُّها المجرمون... وإني أسـألُ الله تَعالى أن يُلْهِمَني الصَّبْرَ الجميلَ على فِراقه، وأن يُعينَني على مُصيبتي».

ولم تَنْقَطِعْ دمُوعُ «يعقوب» عليه السلام أَسَـفًا على «يُوسُـف»؛ حتى ابْيَضَّتْ عيناهُ[1] من الحُزْنِ وعَمِيَ.

لكِـنَّ الله تعالى ـ رحْمَةً مِنْهُ بعبادِهِ المؤمنين ـ أَرْسـلَ إلى «يوسف» أَشْخاصًا رفعوهُ من البئْرِ وهُوَ على قيْدِ الحياة.

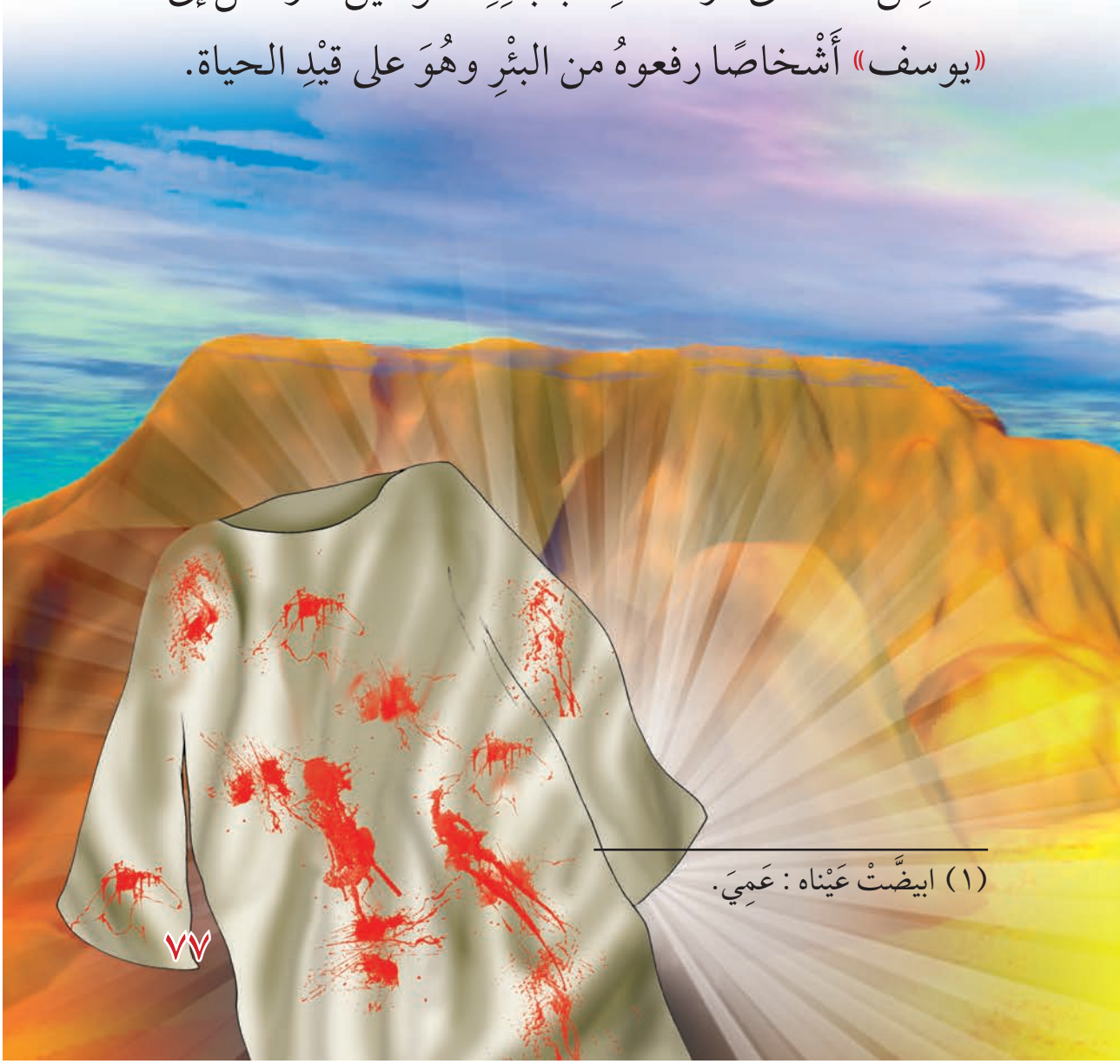

(١) ابيضَّتْ عَيْناه: عَمِيَ.

٧

بَقَراتُ يُوسُفَ

عليه السلام

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

صدق الله العظيم

سورة يوسف ـ الآيات (٤٦ـ ٥١).

لَـمْ يَلْبَـثْ سَـيِّدُنا «يوسـف» عليه السلام في البِئْـرِ حيـثُ رماهُ إخْوتُـهُ إلَّا قليلًا؛ إذ نجَّـاهُ الله تعالى من خطر الموت؛ فقد مَـرَّتْ قافِلَةٌ في ذلك المكان، وأرادَ أفرادُها أن يَسْتَسْـقوا، فأرسـلوا أَحَدَهُم إلى الْبِئْر فأدْلى دَلْوَهُ، فتَعَلَّقَ به «يوسُـف» وَارْتقـى، ثُـمَّ حَمَلُوهُ مَعَهُـم إلى «مِصْرَ»، وهنـاكَ باعُوهُ في سوقِ العبيدِ بثمنٍ بَخْسٍ[1] دَراهِمَ مَعْدودة.

وكان سـيِّدُنا «يوسُف» عليه السلام جميلًا فائِقَ الحُسْنِ، آيَةً في البهاءِ والسِّـحْر؛ فَأُعْجِبَتْ بِهِ «زليخا» زوْجَةُ الرَّجُل الذي اشْتراه، وافتتنتْ به إلى أبعدِ حدودِ الافْتتان.

أمـا هو فقد كان مُنْصرفًا إلى الخدمـةِ غيرَ مُبالٍ بها، ممَّا كان يزيدُهـا تعلُّقًـا وإعجابًا به، وحاوَلَتْ بكُلِّ وسـيلةٍ أن تُخْرِجَهُ عن وَقارِهِ وتَجْذِبَهُ إليها، ولكنْ دونَ جدْوى؛ فقد كان معْصومًا من رَبِّه.

وفي يَوْمٍ من الأيَّام اقتحمت عليْه غُرفَتَهُ، وغلَّقتِ الأبوابَ وهـي في ثورةٍ جامِحَةٍ، وأَرادَتْهُ أَنْ يُخْطئَ؛ فاسْـتعاذَ بالله؛ فَحَفِظَهُ الله وحَمَاهُ.

---

(١) بَخْس : قليل.

فأحسَّتْ «زليخا» بأَنَّ كرامتَها قَدْ طُعِنَتْ، فأَضْمَرَت الشَّرَّ في نَفْسِها لـ «يُوسف».

ورغْمَ ظهورِ براءتهِ عليه السلام بشهادة واحِدٍ من أَهْلِها، فقد أَخَذَتْ تُحرِّضُ زَوْجَها على «يوسف»، وتقولُ له:

«إن أَقَلَّ الجزاء لِمَنْ أراد السُّوءَ بأهْلِكَ أن يُسْجَنَ أو عذابٌ أليم».

حتى أذعنَ الزَّوْجُ لِطَلَبِ «زليخا» وأَطَاعَها، ودَخَلَ «يوسُفُ» السِّجْنَ؛ ومكَث هناك بضعة أعوام.

لَقَدْ خَرَجَ «يوسُفُ» من مِحْنةِ الْبئْرِ سليمًا مُعافى؛ فَهَلْ يَخْرُج من محْنَةِ السِّجنِ بريئًا مُكَرَّمًا؟

كان مَعَهُ في السِّجْن رَجُلانِ توثَّقتْ علاقَتُهُ بهما، وَعَرَف أَنَّهما ضالَّانِ يَعْبُدانِ غَيْرَ الله تَعَالَى، فَآلَمَهُ ذلك؛ وأَخَذَ يُعلِّمهُما ويُرشِدُهما إلى العقيدةِ السليمة، ويَضْرِبُ لهُما الأمثال؛ ويقولُ لهما:

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

لم يَنْسَ «يوسُف» عليه السلام نَفْسَهُ ورسالتَهُ في هدايةِ النَّاس؛ رغم ظلامِ السِّجْن وظُلْمتهِ؛ وقام بأدائها خَيْرَ قيام.

أَحَبَّ هذان الرَّجُلان «يُوسُفَ» وازْدادَ تعلُّقُهما بِهِ، وكان إعجابُهما بعِلْمِهِ وفهْمِهِ كبيرًا وعظيمًا.

وفي لَيْلـةٍ رأى كُلٌّ مِنْهُمـا حُلُمًا؛ فطلبا إلى «يوسـف» أن يُفَسِّرَ لهُما ما رأيا، فَصَدَقهُما الحديث.

ولـمَّـا اقْتـربَ مَوْعِـدُ خُروجِهِمـا مـن السِّـجْن، وكان أحدهمـا يعمـل في قَصْر الملك، طلب إليه «يوسـف» أن يذكُرَهُ عِنْد سَيِّده؛ لَعَلَّ الملِكَ يُفْرِجُ عَنْهُ لِبَراءتِهِ.

لكـنَّ الرَّجُـلَ بعـد أن خَـرَج مـن السِّـجْن وعـادَ إلى عَملِهِ في قَصْرِ الملكِ نَسِـيَ أَمْرَ «يوسُـف»؛ واسـتمرَّتْ إقامتُهُ عليه السلام في السِّـجْنِ مُدَّةً أُخرى طويلة.

استيقظ الْمَلِكُ يَوْمًا وقد رأى في منامِهِ رُؤْيا عجيبة؛ رأى سَـبْعَ بقراتٍ سمينةٍ تأكُلُها سَبْعُ بَقَراتٍ هزيلةٍ نحيلة، ورأى سَبْعَ سـنابِلَ خُضْرٍ، وسَـبْعًا يابسات؛ فطلـب إلى وُزَرائِهِ وعُلمائِهِ أن يُبيِّنوا له مَعَانيَ تلْك الرُّموز، فسكتوا ولم يُجيبُوا بشيءٍ.

وكان رفيقُ «يوسُف» في السِّجْنِ حاضرًا، فقال لِلْملِك:
«لقد تذكَّرْتُ أمْرًا يتعلَّق بتَفْسيرِ الرُّؤْيا».
فقال المَلِكُ:
«وما هو؟».

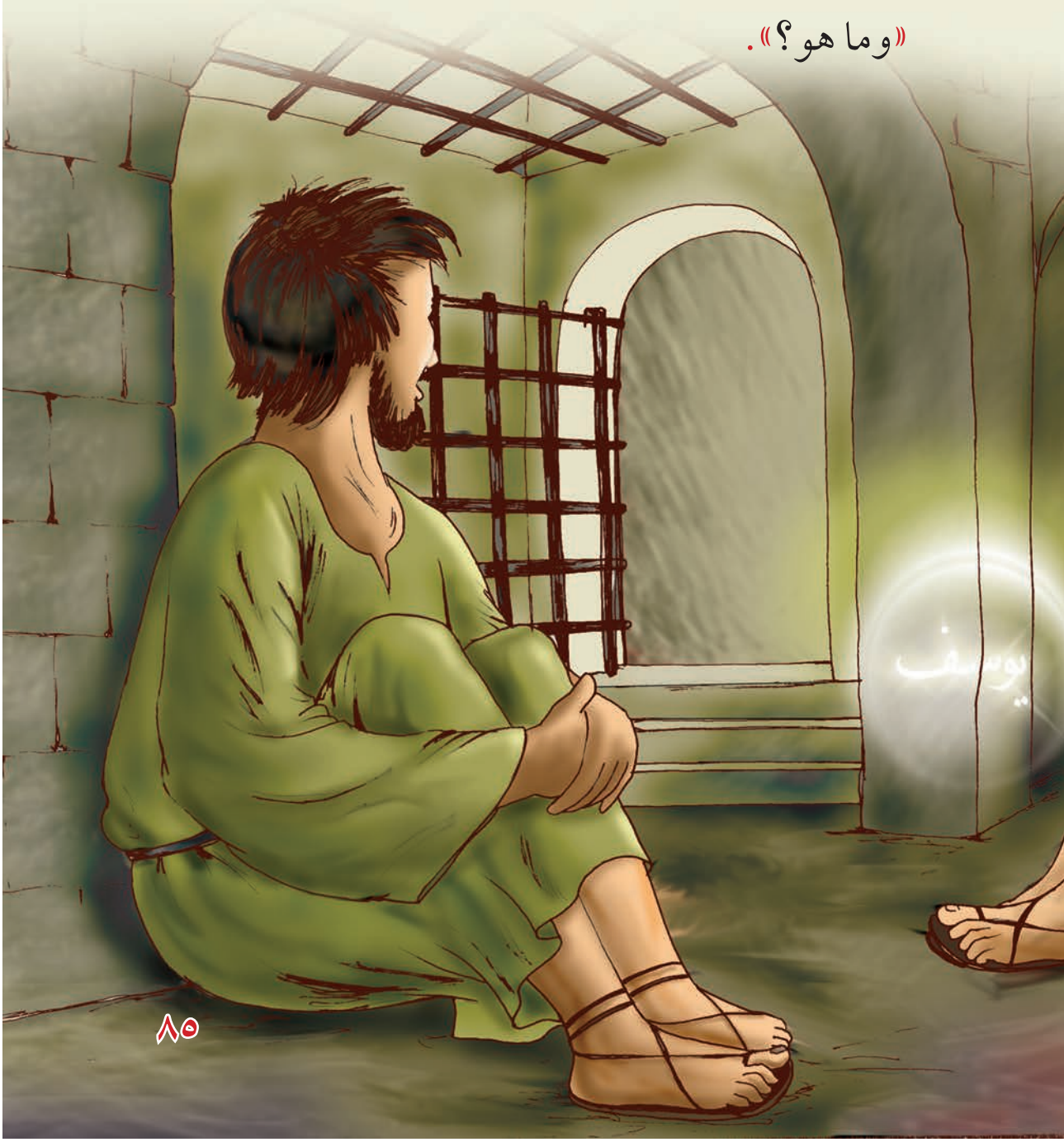

فقال الرَّجُلُ:

«إِنَّ في سجْنِ الملك رجلًا بريئًا بارعًا في تَفْسير الأَحْلام، وقد أوصاني أن أَذْكَرَهُ عِندك وقد نسيتُ».

فقال المَلِكُ:

«اِذهَبْ إليْه واسْأَلْه بيانَ أَلْغاز البقرات والسَّنابل، ولعلَّه على ما ذَكَرْتَ من الفَهْم والعِلْم».

جاء رسُولُ الملِكِ إلى السِّجْنِ وعَرَضَ على «يوسُف» الرُّؤْيا؛ فقال عليه السلام:

«إنَّ البقراتِ السمينات والسنابلَ الخُضْرَ تعني أن السنواتِ السَّبْعَ القادماتِ سنواتُ خِصْبٍ ونَماء؛ فَكُلُوا بَعْض غلَّاتِها؛ قَدْرَ حاجتكم، واخْزِنُوا الباقي؛ لأنَّ البقراتِ النَّحيلاتِ والسنابلَ الصُّفْرَ ترمِزُ إلى سَنَواتِ جفاف وقلَّةِ إنتاج؛ وستحتاجون فيها إلى ما ادَّخرتُم وخزنتُم؛ وسيعقُبُ ذلك عامٌ يتوافد فيه النَّاسُ عليكم من أقطارِ الأرضِ مستنجدين مستغيثين، هذا ما علِمْتُ؛ والله أَعْلم».

ثـم إنَّ الرَّجُلَ ـ صاحب «يوسـف» ـ نَقَـل تعبير الرُّؤْيا، وتفسيرَ الحُلُم إلى الملِك؛ الَّذي أُعْجِبَ بهذا البيان؛ فأَمَرَ بإخراج «يُوسُـفَ» مـن السِّـجْنِ وإحْضارِهِ إليْـه؛ فرفَضَ «يوسف» عليه السلام أن يَخْرُجَ من السِّجْنِ قَبْلَ أن يُحقِّقَ الملكُ في التُّهمـة الظَّالمةِ الَّتي وُجِّهتْ إليْهِ؛ والَّتي دخل السِّـجْنَ بسببِها؛ وذلك من أَجْلِ كرامتِهِ، وعِزَّةِ نفْسِهِ.

فـازداد إعجـابُ الملك به، واشـتاقت نفسُـه إلى رؤيتِهِ ومشـاهدتِهِ ومحادثتِـهِ؛ ثم أَمَـر بإحضار النِّسْـوة اللَّواتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ واشتهر أَمْرُهُنَّ؛ فَسَأَلَهُنَّ؛ فَأَخْبَرْنَهُ الحقيقةَ وقُلْنَ له:

«إنَّ «يُوسُـفَ» رجُـلٌ صِدِّيـقٌ خلُوق، وليس مـن طَبْعِهِ السُّوء».

ثُمَّ إن «زليخا» أمامَ اعتراف النِّسْـوة ـ صديقاتِها ـ ببراءة «يُوسُـف» وطُهْرِه؛ لم تجـدْ مفرًّا من قـوْلِ الحقِّ؛ فقالت للملك ولزوْجها:

﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

وخـرج عليه السلام مـن السِّـجنِ بريئًـا؛ فَرَفَعَـهُ الملـكُ إلَيْـه؛ وصَدَقَـتْ نُبوءَتُـهُ في تفسـيرِ الحُلُـم، فمـرَّت بالبـلادِ المصرية سـنواتُ الخِصْب وسنواتُ الجَدْبِ؛ ووظَّفَ الملِكُ «يوسُـفَ» عـلى أَمْـوالِ الدَّوْلـة واقْتصادِهـا

يَتَصَرَّف بحكْمَة ودِرايةٍ وعِلْم.

وهكـذا بَلَـغَ «يوسـف» مَرْتبـةً عُظمـى ومكانةً سـاميةً بسببِ إيمانِهِ بالله، واسْتِمْساكِهِ بحَبْلِهِ؛ وكانت رُؤْيا الملك لِلْبقراتِ خيْرًا وبركةً على «يوسف».

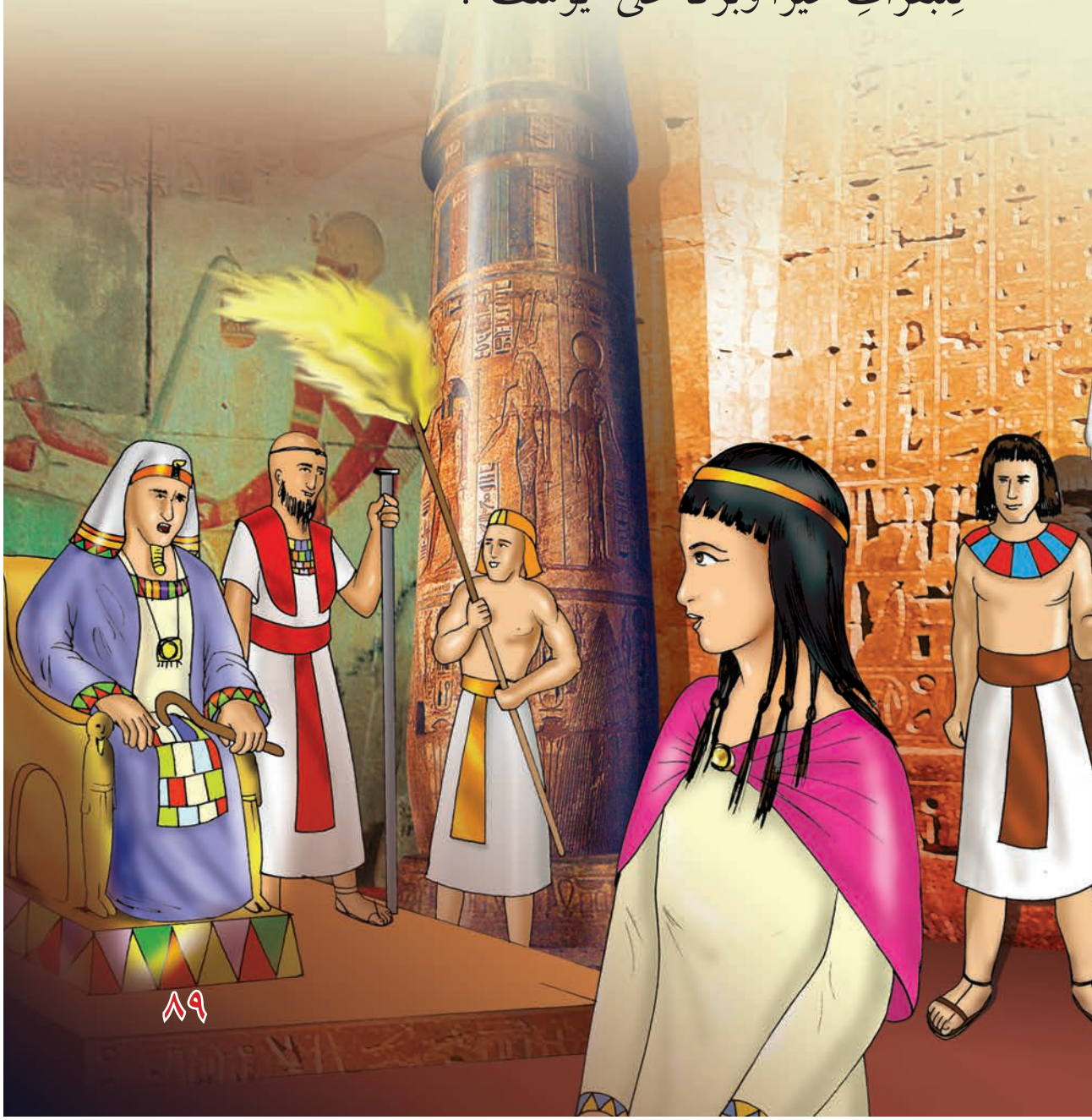

الرُّؤْيَا في حياة سيِّدنا «يُوسُفَ» عليه السلام

بُنَيَّ العزيز:

لم نَعْرِضْ في هذه القِصَّةِ إلا لجُزْءٍ جانبي من حياة سيدنا «يوسف» عليه السلام، وهو: منام الملك، وتأويلُ «يوسف» للرؤْيا، ثم خروجه من السجْن بعد ذلك، وبراءتِهِ من التُّهمة، وجلاء موقفه الشريف.

ولكنك ـ يا بنيَّ العزيز ـ تُلاحِظُ في قِصَّة «يوسف» عليه السلام أنَّ حَياتَهُ كانَتْ محصورةً بَيْن المحنةِ والمنحة!

وأن مُبْتدأ أمرِه كانت الرؤيا، وكذلك النهاية...

لقد رأى وهو طفلٌ صغيرٌ في منامه رؤيا عظيمة، رأى أَحَدَ عَشَرَ كوْكَبًا والشَّمْسَ والقَمَرَ يقتربون منْهُ؛ يَنْزلون من علياء السماء إلى سَطْح الأرض... فكأنهم يسْجدون لَهُ في حركتهم هذه...

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

فقال له سَيِّدُنا «يَعْقوبُ» عليه السلام:

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾.

وبناء عليه، دخل «يوسف» عليه السلام في سلسلةٍ مُتَّصلة الحلقات من المِحَنِ والشَّدائد والصِّعاب، كانت كلُّها ابتلاءً وفِتنة واختبارًا... من حينِ إلقائِهِ في الجُبِّ، إلى بَيْعِهِ رقيقًا لعزيز مِصْر، ثم افتتان امرأة العزيز به، واستمساكه بإيمانه وخُلُقِه، إلى اتهامهِ وإلقائه في السِّجن يعاني من ذُلِّ الأَسْرِ والقَيْد.

وَحَيْثُ كان مبدأ فِتْنتهِ بالرؤيا التي رآها، كان أيضًا مبدأ الخلاص والنَّجاة برؤيا الملك: رؤيا البقرات السَّبع السِّمان، والأخرى العجاف، وكذلك السُّنبلات الخضْر والأُخر اليابسات.

ولقد كان علم «يوسف» الذي أُعْطيه من قِبَلِ الباري ـ عزَّ وجلَّ ـ في تَعْبير الرُّؤْيا سَبَب خلاصه، وبراءته، وردّ اعتباره... وليس ذلك فقط، بل تَبَوُّئه مكانًا رفيعًا في قصر الملك ... ثم ..

ثم ماذا...؟

ثم تحقيق الرُّؤيا التى كانت سبب المحنة، وقد جاء أبواهُ وإِخْوَتُهُ من «فلسطين» إلى «مصر»، وانْحَنوا له اعترافًا بالفَضل. فقال «يوسف» لأبيه:

﴿ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ ﴾.

وهكذا، كانت حياته عليه السلام مُحاطَةً بالرُّؤَى، بَيْنَ المِحْنَةِ والمِنْحَةِ!!

٨

حُوتُ يُونُسَ

عليه السلام

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

صدق الله العظيم

سورة الصافات ـ الآيات (١٣٩ ـ ١٤٨).

أَرْسَلَ الله ـ تَعالى ـ سيِّدَنا «يُونُسَ» عليه السلام نبيًّا إلى أهل «نِينَوى» في «العراق»؛ ليَهْدِيَهُمْ إلى الصِّراط الْمُسْتقيم، ويُحَذِّرَهم من عَذابِ يَوْمٍ عظيم؛ لِيَبْتعِدُوا عمَّا هُم فيه من ضلالةٍ وكُفْر، ويمتنعوا عن ارتكابِ المُحَرَّماتِ.

ولم يكُنْ «يُونُسُ» عليه السلام من أَهْلِ «نِينَوى»؛ فكان غريبًا عن القوْم، ليس له فيهم أَهْلٌ، وَلَيْس له بيْنَهم قرابة.

فأقام عِنْدَهُم يَدْعوهُم إلى الهُدَى، ويُرْشِدُهم إلى الخَيْر، ويُبَصِّرُهم بالفضائل ومكارمِ الأَخلاق. فَلَمْ يستجيبوا له، ولم يسمعوا نصائحَهُ، وزادوا في انحرافِهم عن الطريقِ المستقيم، وأَمْعَنوا في ابتعادِهم عن النَّهْجِ القويم، وأَغْرَقوا في لذائذِهم وشَهَواتِهم.

وكان «يُونُسُ» عليه السلام شابًّا طَرِيَّ العُودِ مُتَوَقِّدَ الحيويَّةِ والنَّشاط؛ فثارَتْ ثَائِرتُه لإعراض النَّاس من أهل «نِينَوى» عن دَعْوتِهِ؛ فخرج من بَيْنِهِم غاضبًا بعد أن لَبِثَ فيهم زَمَنًا! وَلَمْ يكُنْ خُروجُه بأمْرٍ من الله ـ تعالى ـ أَوْ وَحْيٍ من عنده.

وسار حتى ابْتَعَد، ثُمَّ بَلَغَ شاطِئَ الْبَحْرِ، فرأى مَرْكبًا راسيًا عنده، ورأى خَلْقًا كثيرًا بأمتِعتِهم وحوائجهم يتزاحمون على الرُّكُوبِ فيه، فَصَعِدَ إليْه مَعَهُم، واتَّخذ مكانَهُ بينَهُم، فلمَّا كان غروبُ ذلك اليومِ أَقْلَعَ المَرْكَبُ وَنَشَرَ النُّوتِيُّون[1] الأشرعة، واتخذ الفُلْكُ[2] سبيله في البَحْرِ، ومضى إلى وِجْهتِهِ الَّتي يقْصِدُها.

وحينَ أَظْلَمَ اللَّيْلُ أَوى «يُونُسُ» عليه السلام إلى رُكْنٍ وأغمض عينيه وأغفى، وراح في سُباتٍ عميق؛ وذلك بسببِ ما لقيه أثناءَ نهارِه من تعبِ المشيِ وجُهْدِ السَّيْر.

ولم تمضِ إلَّا ساعاتٌ قلائل حتَّى هَبَّ عليه السلام من نوْمِهِ مَذْعورًا خائفًا على أَصْواتِ الاستغاثةِ، يُطْلِقُها رُكَّابُ الْفُلْكِ، فَتَخْتلِطُ مَعَ زَمْجَرةِ الرِّياحِ وهديرِ الْمَوْج؛ وَعَلِمَ أَنَّ عاصفةً عاتيةً قد هَبَّتْ، وأن المَرْكَب

---

(١) النُّوتِيُّون: البحَّارة.

(٢) الفُلْك: المَرْكَب.

يُوشِكُ أَنْ يَغْرقَ؛ فالأمواجُ الطاغيةُ تلْعبُ به كريشةٍ في مَهَبِّ الريح؛ وتتقاذفُهُ كالكُرةِ بينَ أقدامِ اللاعبين.

ثم أصْدرَ الرُّبَّانُ أوامِرَهُ قائلًا:

«لابُدَّ من تخفيف حِمْل المركَب، وإلا فَإِنَّه سيكونُ طعامًا للأسْماك بمن فيه ومَنْ عَلَيْه».

فاجْتَمَعَ النَّاسُ واقْتَرعوا؛ فكان «يُونُسُ» عليه السلام مِمَّن وَقَعَتْ عليْهم القُرْعَةُ، ليُلقِيَ بِنَفْسِهِ في الْبَحْر، فَسَلَّم أَمْرَهُ إلى الله وأَلْقى بِنَفْسِهِ، وحينَ أَصْبَحَ في الماء ابْتَلَعتْهُ سَمَكَةٌ كبيرةٌ هي «الحوت»، وغيَّبَتْه في جَوْفِها.

وإزاءَ الظَّلامِ الشديدِ والجُوعِ المُميتِ والعطشِ القاتل؛ شعر «يُونُسُ» عليه السلام بالرُّعْب والخوف، ثم أَدْرك من خلالِ نورِ الإيمان الذي يَشِعُّ في قلْبِهِ بأنَّ هذه المِحْنَةَ هي ابتلاءٌ من الله تعالى له، وامتحانٌ لِصَبْرِهِ واحْتماله، فتوجَّه بكُلِّ جوارحه إلى الباري ـ عزَّ وَجَلَّ ـ يدعُوهُ ويُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، ويَسْأَلُهُ الفرج.

مَضَتْ عليه أيامٌ ولياليٍ وهو في جَوْف الحوت، لا يدري النَّهارَ من الليل، يُداوِمُ على الصَّلاةِ والدُّعاءِ والتَّسْبيح، إلى أن استجاب الله تعالى له، فلفظهُ الحُوتُ على شاطئ رمليٍّ قاحل، تلْتَهِبُ ذرَّاتُه تَحْتَ أشعَّةِ الشمسِ الحارقة.

خرج «يُونُسُ» عليه السلام من جَوْفِ الحُوت ضعيفًا سقيمًا، مُتَهالِكًا شديدَ الصُّفْرةِ من الإعياءِ والمرض؛ فارتمى على الشاطئ ليس به حراك.

ثم أَنعَـمَ الله عليْهِ نِعْمةً أُخرى؛ فَأَنْبتَ إلى جانبه شـجرةَ يقطين تُظلِّلُهُ بظلِّها، وتحميه من حرارةِ الشَّـمس اللَّاهبة، وتُغَذِّيه بثَمَرِها، حتى استعاد قُواهُ ونشاطَهُ.

ثـم ذَكَّرَهُ الله تعالى بواجِب الرِّسـالة وعَهْـدِ النُّبُوَّة الَّذي عَهِـدَهُ إِلَيْـه، وأَنَّ عَلَيْـه أن يَعودَ إلى «نِينَـوى» الَّتي غَادَرَهَا غاضِبًـا مـن أَهْلِهـا المُعانِديـن، فَيُعيـدَ الدَّعْـوَةَ فيهـم إلى الصِّراطِ المستقيم.

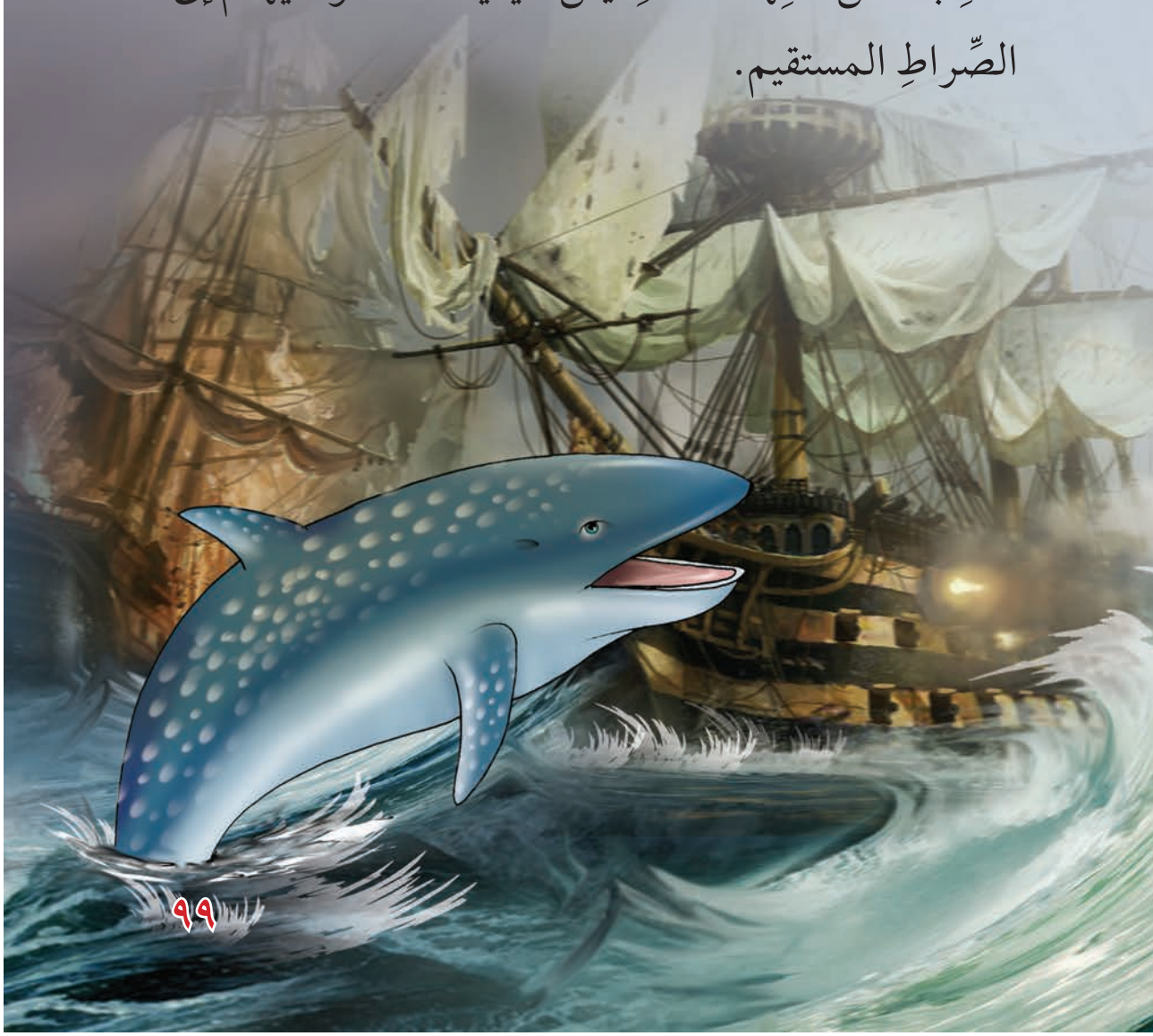

وكانَـتْ «نِينَوى» مدينةً ذاتَ حضارةٍ ومدنِيَّة؛ يزيدُ عَدَدُ سُـكَّانها على مائةِ ألف نَسمة، ومَقْصِدَ البارزينَ من النَّاسِ من مُخْتَلِف البقاع.

أَذْعَـنَ «يُونُسُ» عليه السلام لأمْر الله تعالى، واتَّجه إلى «نِينَوى» مُجَـدَّدًا بِعَزْمٍ شـديدٍ، وتصميمٍ أكيد، واسـتطاع بَعْد جُهْدٍ ومُثابرةٍ أن يُفلِحَ في هدايةِ النَّاس، فآمنوا واتَّبعوا «يُونُسَ»؛

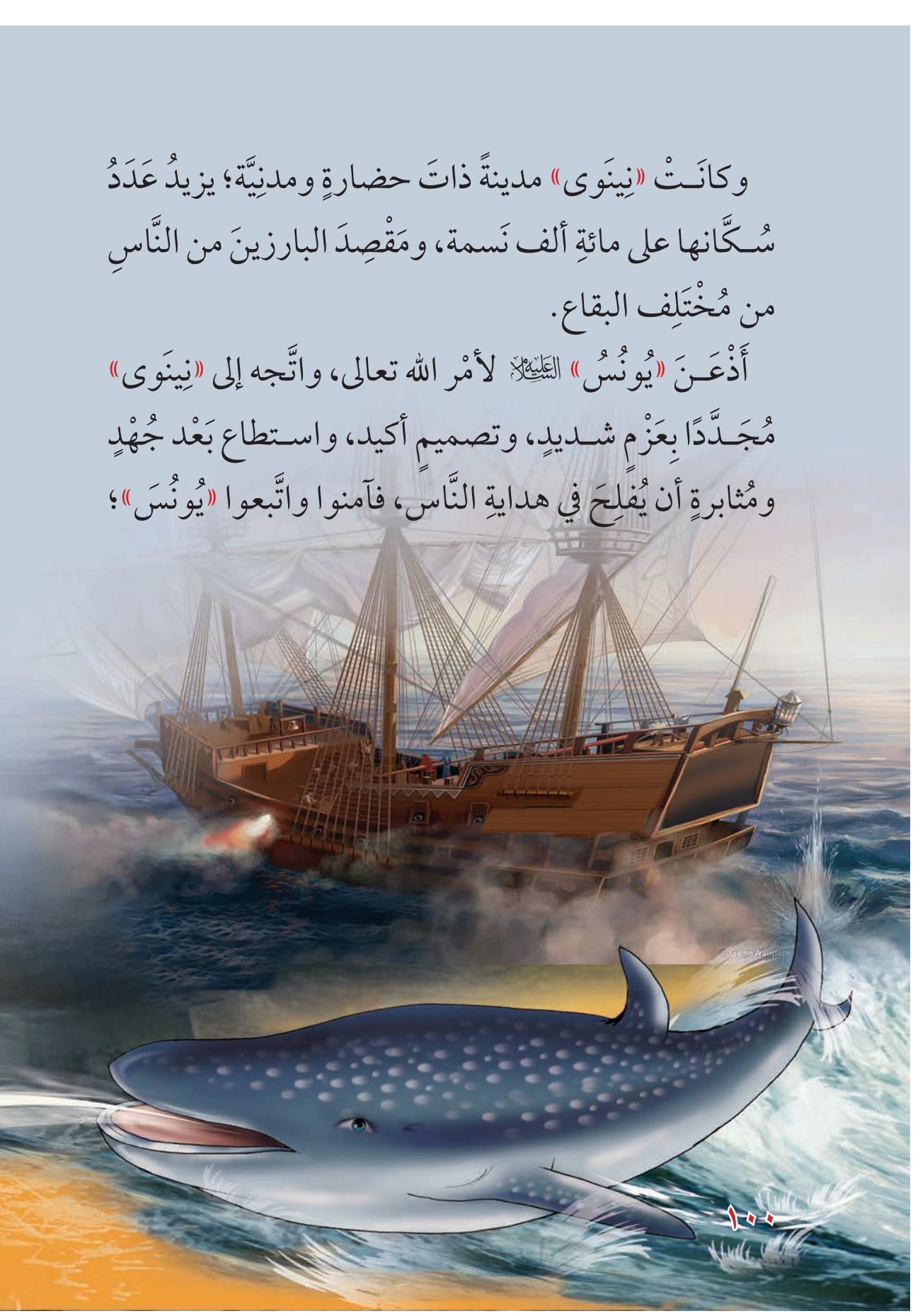

فَأَغْـدَقَ الله تعـالى عَلَيْهِم نِعَمَـهُ الكثيرَةَ وخيراتِـه الوفيرَةَ؛ فباتوا في رَغَدٍ من العيش آمنين مُطْمَئِنِّين.

مِنْ «يُونُسَ» عليه السلام إِلَى «مُحَمَّدٍ» ﷺ

وَنَحْـنُ نَقْـرأُ قِصَّـةَ سـيِّدِنا «يُونُـسَ» عليه السلام ، وتفاصيلها ودقائقها، تذهبُ بنا الذِّكْرى إلى اليوْم الَّذي عاد فيه رسولُنا الأكـرمُ ونبيُّنا الأعظمُ «مُحَمَّدٌ» ﷺ ، من مدينة «الطائف» وقد رَدَّهُ أَهْلُها رَدًّا قَبيحًا مُنْكرًا. . . وَنَذْكُر أنه ﷺ قَدْ دَخَلَ بُسْـتانًا يسـتريحُ فيه من وَعْثـاءِ[1] الطَّريـقِ، وأذى الناس، ويَسْترِدُّ بَعْضَ أنفاسِهِ.

وقد جـاءَهُ آنذاك غلام لصاحب البُسْـتان بقِطْفٍ[2] من الْعِنَبِ ليأْكُله، فلما مَدَّ ﷺ يَدَه إلى الْقِطْفِ سمَّى الله تعالى، فقال: «بسم الله الرَّحْمن الرحيم».

---

(١) الوَعْثاءُ : المَشَقَّةُ والتَّعَبُ.

(٢) القِطْفُ : الْعُنْقُودُ.

فانتفَضَ الغُلامُ، وقال:

«هذا كلامٌ لا يقُولُهُ أَهْلُ هذه البلاد».

فقال رسُول الله ﷺ:

«من أَيْنَ أنْتَ يا غُلام؟». [وكان اسمُه «عدَّاس»، وكان نَصْرَانيًّا].

فقال الغُلامُ «عَدَّاس»: «مِنْ «نِينَوَى»!».

فقال لهُ رسُولُ الله ﷺ: «من بلد «يُونُسَ بْنِ مَتَّى»!».

فقال الغُلامُ «عَدَّاس»: «وما أدراك ما «يُونُسُ بْنُ مَتَّى»؟».

فقال ﷺ: «أنا نَبِيٌّ وهُوَ نَبِيٌّ».

فأكَبَّ «عدَّاس» على يد رسول الله ﷺ يُريدُ تقْبيلها.

هذا الارْتباطُ بَيْنَ رُسُل الله ـ تعالى ـ وأنْبِيَائِهِ لَيْس عادِيًّا؛ فهناك فاصِلٌ زمنيٌّ سحيق، وفاصل جغرافيٌّ شاسع بَيْنَهُم جميعًا، ولكنَّ وَحْدَةَ المصْدَرِ عن الله ـ تعالى ـ تَجْمَعُ بينَهُم، ووَحْدَةَ المَوْرِدِ إليْه ـ سُبْحانه ـ تَرْبِطُهُمْ وتَضَمُّهُمْ.

فالرَّبُّ واحِدٌ، والدِّينُ واحِدٌ، والْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيالُ الله.

٩

نَهْجَةُ دَاوُدَ

عليه السلام

﴿ ۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ
دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا
عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ
أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ
إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ
فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ
لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾.

صدق الله العظيم

سورة (ص) ـ الآيات (٢١ ـ ٢٥).

كان لسيِّدِنا «داود» عليه السلام صَوْتٌ جميلٌ رخيمٌ فيه حَنانٌ وَرَوْعةٌ وسِحْر، ولم يكنْ ليستخْدمَ هذا الصَّوْتَ في الغِناءِ والتأَوُّه[1]؛ بل كان يُرَتِّلُ بِهِ الصَّلواتِ والأَدْعِيةَ الَّتي أَوْحى الله تعالى بها إلَيْه؛ يُردِّدُها في هُدوءِ اللَّيْل فتتجاوَبُ أصْداؤُها في الأوْديةِ السحيقةِ والروابي العاليةِ وقِمَمِ الجبال الشامخة.

ثمَّ يقولُها بِصَوْته الْعَذْب أثناءَ النَّهارِ في ظِلالِ الأشجارِ، فَتَطْرَبُ لها الطُّيُورُ وتُغَرِّدُ، فكأَنَّ الكوْنَ كلَّه يُسَبِّحُ الله ويمجِّدُ عَظَمَةَ الخالقِ سُبْحانَه مَعَ مزاميرِ «داوُد» عليه السلام الَّتي هِيَ «الزَّبور»[2].

ولقد آتى الله تعالى «داود» عليه السلام عِلْمًا وفضْلًا؛ فَأَلانَ له الحديدَ يَصْنَعُ مِنْهُ مُخْتَلِفَ الأدَوات، وعلَّمهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ليَعْرفَ لُغَتَها وما تُردِّدُهُ من الأَقْوال، وآتاهُ النُّبُوَّةَ والْحِكْمةَ، كما نَصَرَهُ على جميعِ الذين كانوا يُحارِبُونَه ويتآمرُون عَلَيْه، حتى وَصَلَ إلى مَرْتَبةِ الْمُلْكِ؛ فَأَصْبَحَ مَلِكًا لـ «بني إسرائيلَ» بدون مُنازع.

---

(١) التَّأَوُّه: أن يقول آه.

(٢) الزَّبور: أي الكتاب، وغلب هذا الاسم على مزامير «داود».

ثُـمَّ بـوَّأَهُ منْصِـبَ القضـاءِ ليَحْكُمَ بَيْـنَ النَّـاسِ بالعدلِ والقِسـطاس، وَهُـوَ مَنْصِـبٌ يحتـاجُ إلى الْعِلْـم والحِكمةِ والتعمُّق في دَرْسِ القضايا والمشاكل.

وكان سيِّدُنا «داودُ» عليه السلام قد خصَّص يوْمًا يَجْلِسُ فيه إلى النَّاس ويسـمَعُ شـكاواهم، ثُمَّ يَفْصِلُ بينهم في مُنازَعاتِهم وخُصوماتِهـم. كمـا خَصَّـصَ يَوْمًـا آخـرَ يَدْخُـلُ فيه إلى المِحْرابِ، حَيْثُ يُصَلِّي لله تعالى، ويتلو أَدْعِيَتَهُ وتسابِيحَهُ، ويُطْلِـقُ لصوتِهِ العِنـانَ في التِّـلاوةِ والتَّجْويـد، ويَنْصَرفُ بكلِّ جوارحِهِ ومشـاعرِهِ وأحاسيسِهِ إلى رَبِّه، ويَظَلُّ غارقًا في ذَلِـكَ لا يَقْطعُ عَلَيْه خَلْوتَـهُ أَحَدٌ من النَّاس، ولا يَدْخُل عليه المِحْرابَ أَحَدٌ من رَعاياهُ.

وفي يَـوْم مـن أَيَّـام عبادتِـهِ عليه السلام وبينمـا كان مُحَلِّقًـا في أَجْواءِ العبادةِ والخُشوع، هَبَطَ عَلَيْه رجُلانِ من فوقِ سُورِ المِحْـراب؛ فخشِـيَ «داود» مِنْهُمـا وخـافَ، وهـو الذي لـم يَعْرفِ الخوْفُ سـبيلًا إلى قلبه، إذْ ظَـنَّ أنَّهما لِصَّان أو قاتلان، وظهـرتْ على وجْهِهِ علاماتُ الجزَعِ والدَّهشـةِ، وتوقَّف عن تِلاوَةِ صلاتِهِ وتسبيحاتِهِ؛ فقال له الرَّجُلان:

سبحان الله
الحمد لله
الزبور

«لا تَخَفْ، نحن رجُلان شريكان متنازعان، جئناك، ونحن نَعْلَمُ أَنَّك في يومِ عبادتك، من أَجْل أن تحكُمَ بيننا بالْحَقِّ، وما استِعجالُنا إلا خَوْفًا من أن يتطوَّرَ ويشتدَّ الخِلافُ بيننا».

عندئذ ذهب رَوْعُ «داود» عليه السلام، وهدأ اضْطرابُ قَلْبِهِ، فقال لهما: «قُولا ما شأنُكُما».

فقال أَحَدُهُما:

«إنَّ أخي هذا له تِسْعٌ وتِسْعون نعجةً، ولي نعجةٌ واحدة، فقال لي: أكْفِلْنيها ـ أَي اجعلها مَعَ نِعاجي ـ واشْتَدَّ عليَّ في الطَّلَب، وهَدَّدني إنْ لم أَسْتجِبْ له؛ فماذا ترى؟».

لم يَنْظُرْ «داود» عليه السلام إلى الرَّجُلِ الآخر الَّذي كان ساكتًا، وهُوَ الجاني؛ ولم يَسْأَلْهُ عن شيءٍ أَبَدًا، ولم يَسْتَمِعْ إلى وِجْهَةِ نَظَرِه؛ بل قال على الفوْر، وقد تأَثَّر بما سَمِعَ:

«لقد ظَلَمَكَ بسُؤَالِ نَعْجَتِك إلى نِعاجِهِ، وليْس هذا من الْعَدْلِ في شَيْءٍ، وإنَّ كثيرًا من الخُلَطاء[1] لَيَبْغي[2] بَعْضُهُم على

(١) الخُلَطاء: الشُّرَكاء.

(٢) يَبْغي: يظلم.

بعض، إِلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هُمْ».

ولـم يَكَدْ «داود» عليه السلام ينتهي مـن قوْلِه هذا حتَّى اختفى الرَّجُـلان من أمامِـهِ، وكأنَّ الأرضَ انشـقَّت وابتلعتْهُما! فَأدْرَكَ حينئذٍ أَنَّهما مَلَكانِ أَرْسَلَهُما الله تَعالى إِلَيْه؛ لِيمْتَحِنَهُ ويُجرِّبَهُ في أَمْرِ القضاءِ والحُكْم بَيْن النَّاس.

كما أَدْرك بأَنَّه قد تَسَرَّعَ في الحُكْمِ وإعطاءِ الرَّأْي دونَ أن يَسْتَمِعَ إلى دِفاع الجاني، مُكْتفيًا بِقَوْلِ المجني عَلَيْه؛ فَأَحسَّ بالنَّـدَم يأْكُلُ قَلْبَهُ، فتوجَّه إلى الله تعالى مُسْـتَغْفِرًا تائبًا داعيًا، وَظَـلَّ عـلى حالِهِ تِلْك مـن التَّلَوُّم فَتْـرةً، بَصَرُهُ مشـدودٌ إلى السماء، جاثيًا على رُكْبتيْه تَذَلُّلًا وَخُضُوعًا، حتى أوحى الله تعـالى إليْه أَنَّه قد غَفَرَ له وقبِلَ تَوْبَتَه وصَفَـحَ[1] عَنْهُ، وأَنَّ لَهُ عِنْدَ رَبِّه في الآخرة مكانةً عاليةً وثوابًا حَسَنًا وأَجْرًا عظيمًا.

فرضِيَـتْ نفسُ «داود» عليه السلام واسْـتراحَ قَلْبُهُ؛ واعْتَبَر بما حَصَلَ لَهُ.

---

(١) صَفَحَ: عفا.

قصص الأنبياء عليهم السلام
بين القرآن الكريم والتَّوْراة المُحَرَّفة

القارئ العزيز:

إن قصص أنبياء الله تعالى ـ عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ في القرآن الكريم تَضَعُهُم في مقامهم الأسمى ومكانتهم الْعُظْمَى، قادةً لِلأُمَم والشُّعُوب، وهُداةً لهم، ورُوَّادًا إلى الخيْرِ والفضْل، وقُدْوةً طيِّبة.

أمَّا لَوِ اطَّلَعْتَ عليْها في التَّوْراةِ المُحَرَّفة، التي هي بَيْنَ أيدي اليهود والنصارى اليوم، لَوَجَدْتَ صُوَرًا مُشَوَّهةً إلى أبْعَد حدود التَّشْوِيه.

ومن بَيْن هؤلاء الأنبياء الذين شُوِّهتْ صُوَرُهُم، نبيُّ الله «داود» عليه السلام؛ فقد جاءَ في قِصَّة «داود» والخَصْمَيْن والنِّعاج في التوراة: أَنَّهُ عليه السلام كان ذات يَوْم واقفًا في شُرْفَةِ قَصْرِهِ، فَرَأى في إحدى الدُّور القريبة امرأةً حسناء، فوقعت من نَفْسِهِ موقع الفتْنَة، ثم عَرَف أنها زَوْجَة قائد الجيْش.

فاحْتـال في صَرْف قائد الجيـشِ إلى القتال؛ ليمُوتَ هناك، ثُمَّ يَسْتَخْلِصَ المرأةَ لنَفْسِه!

وذلك على الرَّغْمِ من كَثرة نسائِهِ وَزَوْجَاتِهِ!!

إلى هذا الحَدِّ من الإِسـفاف في التأثُّر بالشَّـهوة البشـرية العارضـة، تُنْزِلُ التَّوْرَاةُ شـخصيَّة سـيِّدنا «داود» عليه السلام من عَلْيائها.

ولقد رأى بَعْضُ مُفَسِّرينا ـ رَحِمَهُمُ الله تعالى ـ أن يَذْهبوا هذا المَذْهَبَ في التأثر بالإِسرائيليات، فقالوا بأنَّ النَّعجة التي جاءَ ذكرها في القرآن الكريم إنما هي تَرْمز إلى المرأة!!!

ونحن نأخذُ القِصَّـةَ والعِبْرَةَ من كتاب الله تعالى وَحْده، على ظاهرها الكريم، مِنْ غَيْر غَوْصٍ مُصْطَنعٍ لاكتشافِ ما وراءَ الرَّمز، ونَتْرُك ذلك إلى عِلْم الله وَحْده.

لماذا؟؟

كيْ تَبْقَى صُورَةُ أنْبياء الله ـ تعالى ـ على ما أرادها لهُم رَبُّهم بأنَّهم المُصْطَفَوْنَ الأَخْيار؛ وهذا يكفي، من غيْر جَدَلٍ ولا نِقاشٍ، ولا دُخُولٍ في دَهَاليز التَّفاصيل المُصْطَنَعة.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

١٠

هُدْهُدُ سُلَيْمَانَ عليه السلام

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

صدق الله العظيم

سورة النمل ـ الآيات (٢٠ ـ ٢٦).

كان سيِّدُنا «سُلَيْمانُ» عليه السلام يَعْرِفُ ـ كأبيه «داود» ـ لُغَةَ الطَّير، بِعِلْمٍ أعطاهُما الله إيَّاه، فَيَفْهمُ ما تُريدُهُ بأَصْواتِها إذا صَوَّتَت؛ كما يُفْهِمُها ما في نَفْسِهِ ويُحاوِرُها.

ولقد سَخَّرها الله تعالى لـ «سُلَيْمانَ»، يأْمُرُها فَتَأْتَمِرُ، ويُوَجِّهها إلى أَيَّةِ جِهةٍ أرادَ، ويَسْتَعْمِلُها في بعضِ المهمَّاتِ والشُّؤون.

دعاها مَرَّةً فاجْتَمَعَتْ بَيْنَ يَدَيْه؛ فَأَخَذَ يتفقَّدُها فلمْ يجدِ الهُدْهُدَ بَيْنَها، فاعْتَبَرَ غِيابَهُ مُخالَفَةً لأوامِرِه، وَعَدَّ ذلك جريمةً يَسْتَحِقُّ عليْها الهُدْهُدُ العقابَ الشديدَ، وقال:

«سَوْفَ يلقى الهُدْهُدُ مِنِّي عذابًا شديدًا قد يَصِلُ إلى الذَّبْحِ، أو يعتذِرَ عن غِيابِهِ بِسَبَبٍ مَقْبولٍ ومَعْقول».

فلمَّا حَضَرَ الهُدْهُدُ، سألَهُ «سُلَيْمانُ» عن سَبَبِ غَيْبتِهِ، فقال الهُدهُد:

«كُنْتُ في «سَبَأ» من أرضِ «الْيَمَن»، فرأيْتُ هناك مُلْكًا عظيمًا؛ أَرْضًا واسِعَةً، وخَيْرًا كثيرًا، وخَلْقًا عديدًا، ومَلِكَةً اسمُها «بِلْقيس» تحْكُمُ عليهم؛ يُجِلُّونها ويحترمونها

ويُطيعُونها؛ وهُمْ ـ أي أهلُ تلك البلاد ـ كُفَّارٌ وثنيُّون يعبدون الشَّمْسَ من دونِ الله.

وأَشَدُّ ما أثار دَهْشَتي وإعجابي عَرْشُ تلك المَلِكةِ الْمُحَلَّى بالجوهرِ الثمين واللآلئ الفاخرة».

فأراد «سُلَيْمَانُ» عليه السلام أن يختبرَ الهُدْهُدَ، هَلْ هُوَ صادِقٌ في ما يَقولُ أمْ كاذِبٌ؟ فأعطاهُ رسالةً ليُوصِلَها إلى تلك الملكة، فحملها الهُدْهُدُ وطارَ بها، ووصل إلى قَصْرِ الملكةِ «بِلْقيس» في «سبأ» ليْلًا، فدخل من النافذةِ إلى مَخْدعِها؛ حيثُ تنامُ فوق سريرٍ جميلٍ، وألقى الرِّسالَةَ مِنْ فَمِهِ فَوْقَها.

فاستيقظتِ المَلِكةُ من نَوْمِها، وفتحتِ الرسالةَ فإذا فيها:

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

ومعنى ذلك؛ أنَّ هذه الرِّسالةَ من المَلِكِ النبيِّ «سُلَيْمَانَ» الحكيم الَّذي سَخَّر له الله تعالى الجِنَّ والإنسَ والطَّير وكُلَّ شـيء؛ إلى ملكة «سَبأ» «بِلْقيس»؛ وَعليها أَنْ تَعْرِفَ منزلتَها

ومكانتَها التي هي دُونَ منزلةِ ومكانةِ «سُلَيْمانَ» عليه السلام، وأن لا تَسْتَمِرَّ هِيَ وقَوْمها في عِبادَةِ الشَّمْس، بل ترجعَ إلى عِبادَة الله الواحـدِ الحـقِّ؛ وَتأتي إلى «أورشـليم» ـ القُدْس ـ حيثُ عاصِمَةُ مُلْكِ «سُلَيْمانَ» مَعَ قَوْمِها مُسْلِمينَ ومُسْتَسْلِمينَ.

بعد أن قَرَأَتْ «بِلْقِيسُ» رسالةَ «سُلَيْمانَ»، عرضَتْها على وُزَرائها ومُعاونيها؛ ونبَّهَتْهم إلى أَنَّ «سُلَيْمانَ» أَقْوى مِنْهُم وأَشَدُّ. فَغَضِبَ القومُ وثاروا، وقالوا:

«نحن أيضًا أقوياءُ وأَصحابُ بأْس، ثُمَّ إنَّ الأَمْرَ إليكِ يا صاحبةَ السُّلْطان، نُطيعُك ولا نُخالِفُكِ فيما تَرَيْن».

ففكَّرت «بِلْقِيسُ» كثيرًا، ثم قالت:

«يا قَوْم: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ وأخافُ إنْ خالفنا «سُلَيْمانَ» أن يُهاجِمَنا ويُنَفِّذَ تَهْديدَه وَوَعيدَهُ لنا».

فقالوا:

«ما العمل؟».

فقالتْ «بِلْقيسُ»:

«إنِّي أرى أن أَبْعثَ له هَدِيَّةً عظيمةً؛ ثم نرى بعد ذلك ما يَحْمِلُهُ الرُّسُلُ إلَيْنَا من تأثيرِها عَلَيْه».

فصاحوا جميعًا:

«نِعْمَ الرَّأْيُ؛ ودامَ حُكْمُكِ وحِكْمتُكِ يا مَلِكَتَنَا».

فَلَمَّـا جاءَتْ رُسُـلُها إلى «سُـلَيْمانَ» بالْهَدِيَّةِ لـم يَقْبَلْها، ورفضَهـا، وقالَ لهم: إِنَّهُ ليس في حاجـةٍ إلى أَمْوالِهم؛ فهُوَ وشَـعْبُهُ في أرغَـدِ عَيْشٍ وأهنإِ حالٍ؛ ثُـمَّ توعَّدَهم ومَلِكَتَهُم بأن يُرْسِلَ إلى بِلادِهم بجيْشٍ جرَّارٍ وجنودٍ لا قِبَلَ لهُم بها،

وسيُخْرِجُهُم من بِلادِهم أذِلَّةً صاغرين.

عـاد الرُّسُـلُ إلى «اليمـن»، وأخبـروا «بِلْقيـس» بعظَمَةِ «سُـلَيْمانَ» وَقُوَّةِ مُلْكِهِ؛ فخافتْ على شَـعْبِها من التَّشَـتُّتِ والضَّياعِ والقتْلِ والتشريد، فأجْمَعَت أَمْرَها على الذَّهابِ إلَيْـه في رِجـالِ دولتِهـا، وحَمَلَـتْ معهـا الهدايـا الوفيـرةَ والعطايا الكثيرة.

وحين عَلِمَ «سُـلَيْمانُ» باعتـزامِ «بِلْقيسَ» على الحُضورِ إلى «أورشـليم» ـ القُدْس ـ بنى لها قصْـرًا عظيمًا، وجَعَلَ أَرْضه من الزُّجاجِ السَّـميك بدلًا مـن البَلاط؛ وهذا ما لا يَعْرِفُهُ أَهْلُ «اليمن».

ولمَّـا اقتَـرَبَ مَوْكِبُهـا مـن «أورشـليم»، وصـارَتْ على أَبْوابهـا، أراد «سُـلَيْمانُ» أن يُفاجِئَهـا بِفِعْلٍ خـارق وعَمَلٍ عظيم، يجعلُها تَسْتَسْلِمُ لسُلْطانه، فقال لجُنودِهِ من الجِنِّ:

«مَنْ يستطيعُ أن يأتيَني بعَرْشِ «بِلْقيسَ»؟».

فقال عِفْريتٌ من الجِنِّ:

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.

وقال آخر:

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[1].

فسُـرَّ «سـليمان» بذلـك؛ وأُحْضِـرَ الْعَـرْشُ، وجُعِلَ في القصْر الجديد.

فلمَّا وصَلَـتْ «بِلْقيسُ» استقْبلها «سُـلَيْمانُ» وأَتَى بها إلى القَصْـرِ؛ وعندما دَنَتْ من الباب كَشَـفَتْ عن سـاقيها، ورفعتْ أَطْرافَ ثَوْبها الطَّويلِ، وهِيَ تَظُنُّ الزُّجاجَ البلَّوْرِيَّ في أرض القَصْرِ ماءً رَقْراقًا، فأخبرها «سُـلَيْمانُ» بأنَّ الَّذِي تراه إنَّمَا هو زُجاجٌ وليس ماءً.

ولمَّـا رَأَتِ الْعَـرْشَ يَتَصَـدَّرُ قاعَـةَ الْقصْـرِ الكُبْـرَى، وقَفَـتْ جامِدَةً في مكانِهـا مُتَعَجِّبةً؛ فقال لها «سُلَيْمانُ»:

﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ؟ ﴾.

فقالتْ:

﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ !!! ﴾.

---

(١) أي قبل أن تُغلقَ عينك وتفتحَها.

فَأَخْبَرَهـا «سُـلَيْمانُ» بـأنَّ العَـرْشَ عَرْشُـها، وأنَّ الَّذِي أحضرهُ أَحَدُ جُنُودِهِ من الجِنِّ في أقلَّ من طرْفةِ عين.

فقالت «بِلْقيـسُ»: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وهكـذا كان غِيابُ الهُدْهُدِ ثُمَّ حُضُورُه خيْرًا وبركةً على «سُلَيْمانَ» و «بِلْقِيسَ» وأَهْلِ «سَبَأ».

جُنُودُ «سُلَيْمانَ» عليه السلام

بُنَيَّ العزيز: يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

لقد سخَّرَ الله ـ تعالى ـ لسيدنا «سُلَيْمَان» عليه السلام كثيرًا من مخلُوقاتِهِ، كما عَلَّمه مَنْطِقَ الطَّيْر، فكان كلُّ ذلك ابتلاءً من الباري ـ سُبْحانهُ ـ لنبيِّه «سُلَيمان» عليه السلام: كيْف يَسْتَخْدم تلك القوى الهائلة؟ وكيفَ يَذْهَبُ بها؟ وأيْن يَضَعُها؟ وإلى أيَّة غايةٍ يَسْعى؟

وهذا دَرْس من الله ـ تعالى ـ لِكلِّ إنسان، ولكلِّ بشر... فلا يكفر بنعْمة الله، ولا يَسْتَخْدمها في غير طاعَتِه وعبادته، ولا يوجِّهها إلَّا إلى الخَيْر، خَيْر الفرْد وخيْر المجْتمع... ولا يكون فَرْدًا تَسْتَهْويه نَزْعَةُ الشَّيْطان ووَسْوَسَتُهُ، وَلا تَسْتَخِفُّه، فيقع في المحظور، فَيَصْدق فيه عندئذٍ قَوْلُ الله تعالى:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾.

وليكُونَ على بيِّنة أبَدًا من الحقيقة القائمة الماثلة:

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾.

والَّـذِي يُلاحِظُ الحِوارَ الَّذِي أجراهُ سيِّدنا «سـليمان» عليه السلام مـع الهُدْهُـد، ثم اسـتخْدام الجِـنِّ في إحضار عرْش «بلقيس» «ملكة سـبأ»، يرى بوضوح وجلاءٍ أنَّه عليه السلام كان لا يَسْـتَخْدِمُ أيَّـةَ قُوَّةٍ سُـخِّرَتْ لَهُ من عند الله إلا في سَـبيل الخيْر...

لم تَكُنْ لديه رَغْبَةٌ في العرْش ذاتِهِ...

ولا في «بِلْقيسَ» نفسها...

ولا في بلادها...

بل كان جُلُّ همِّه صَرْفَها وقَوْمِها عن عبادة غَيْر الله تعالى، والاهتداء إلى الحق...

كان همُّه الأوْحدُ: إسلامَها وإسلامَهُمْ... فَقَط!!

وبهذا يكونُ الخلاصُ الحَقُّ.

وَبِهِ يضمنُ الناس جميعًا، وفي مختلف العُصورِ والدُّهورِ سعادَةَ الدُّنْيا ورِضْوَانَ الآخِرَةِ.